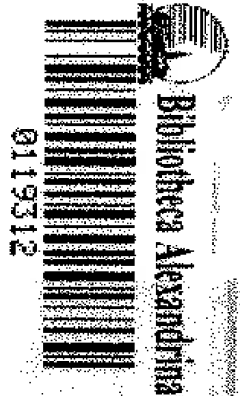
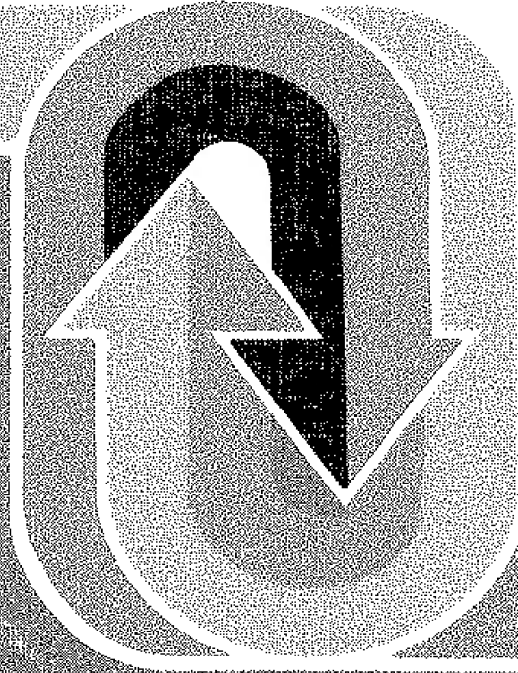


فِي الْمِيزَانِ

كارل بروكلمان

شوقي أبو خليل



دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَانَ ذَلِكَ وَكَانَ ذَلِكَ
فِي السَّمَاءِ

شوقي أبو خليل

كَانَ لَكَ وَكَأَمَلِكِ
فِي الْمِيزَانِ

دَارُ الْفِكْرِ
دمشق - سورية



الكتاب ٧٤٩

الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ، كما يمنع الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ، إلا بإذن خطي من دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩١٢) - برقياً : فخر
س . ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - تليكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري : دار الفكر بدمشق
الإفشاء (أوفست) : المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

☆ « اللهم هب لنا الخير ، واعزم لنا على
الرُّشد ، وأتسنا من لدنك رحمة ، واكتب
لنا السَّلامة في الرُّأي ، وجنبنا فتنة
الشَّيطان ، أن يقوى بها فنضعف ، أو
نضعف لها فيقوى » .
الرافعي

بسم الله القائل : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ
تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، [التوبة ١١٠] ، وصلى الله على رسول الله
القائل : « اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي ، وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي » ، وبعد ..

كنت أحاضر في إحدى الكليات عن مدارس الاستشراق ، ولما تكلمت عن
المدرسة الألمانية ، لفت نظري ثلاثة من مستشرقينا ، هم أهمُّ أعلامها : تيودور
نولدكه ، وبروكلمان ، وريسكه ، وهذا الأخير مع سعة علمه واتقانه للنحو
العربي ، وإطلاعه على كلِّ الكتب العربيَّة المطبوعة حتَّى سنة ١٧٣٦ م ، كان كلِّما
أمعن في دراسة الكتب العربيَّة ازداد بالعربيَّة ولوعاً ، فاطَّلَعَ على المخطوطات
العربيَّة في جامعة ليدين .

لقد أبغض اللاهوتيُّون ريسكه أشدَّ البغض ، وحاربوه فتحطَّمت آماله في
الحصول على وظيفة أستاذ بإحدى الجامعات الألمانيَّة ، وكان عليه أن يقبل وظيفة
في مدرسة ثانويَّة ، واعترض رجال الدِّين على تعيينه مديراً لمدرسة ، لولا أنَّه

لفت إليه انتباه الوزير الكونت فاكربرت ، ووعده بإزالة ما عسى يثيره رجال الدين ضد تعيينه مديراً من اعتراضات .

ولم يجد ريسكه ناشراً واحداً يقبل أن ينشر له كتبه في ميدان الدراسات العربية ، فاضطر أن ينشر ما نشر من ذلك على نفقته الخاصة ، وهو الفقير المعدم .

وتساءلت : لِمَ لَمْ يلقَ ريسكه ، ما لقيه نولدكه وبروكلمان من شهرة ؟ فعدت إلى ترجماتهم ونتائجهم ، فوجدت أن نولدكه وبروكلمان لم يقدموا حقائق تثير رجال الدين في أوربة ، بل قدم الرجال ما يرضيهم تماماً ، فَرُوج لما قدما ، ونُشِر ما أُلِّفَا ، فاغتنى الرجال ، وعمت شهرتهما الآفاق ، وبلغت عنان السماء .

بينما نطق ريسكه بما اقتنع ، وكتب ما أملاه عليه ضميره ، ونشر ما اعتقده بعيداً عن رأي رجال الدين وسطوتهم ، فقال : « إن ظهور محمد وانتصار دينه هما من أحداث التاريخ التي لا يستطيع العقل الإنساني إدراك مداها » ، ويرى في ذلك « برهاناً على تدبير قوة إلهية قديرة » .

لقد أبغض اللاهوتيون ريسكه أشدَّ البغض ، لأنه مجَّد الإسلام ، ولم يوافقهم على أكاذيبهم وافتراءاتهم حول محمد بن عبد الله ﷺ خصوصاً ، وحول الإسلام وتاريخ الإسلام عموماً ، وفي ذلك يقول فوك : « لقد كان متَّهماً عند اللاهوتيين بأنه حرُّ التفكير ، ولم يسايرهم في ادِّعائهم أنَّ محمداً كان نبياً زائفاً وغشاشاً ، وأن ديانتَه خرافات مضحكة » ، لذلك لم يحصل على منصب جامعي ، وعيِّن مدرِّساً في إحدى الثانويات ، وثارَت ثائرة رجال الدين عندما اقترح لإدارة ثانوية ، فنقل إلى متحفٍ للنقود ، لا يرى أحداً ، ولا يراه أحد ، لا يتصل بأحد ، ولا يتصل به أحد .



وعدت إلى كتاب « المستشرقون » للأستاذ نجيب عقيقي ، لأرى ما كتبه عن بروكلمان - مثلاً - وقد انتشر كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » في مكتباتنا العربية ، فوجدته في الجزء الثالث ، الصفحة ٤٢٤ وما بعدها يقول عن بروكلمان الذي قدّم ما يرضي رجال الكنيسة : « وطارت له شهرته في فقه العربية وقراءتها قراءة فصيحة ، وكتابتها كتابة سليمة ، وفي التاريخ الإسلامي ، وتاريخ الأدب العربي ، حتّى عدّ إماماً من أئمتها » ، وعيّن أستاذاً لها في الجامعات الألمانية ، وانتخب عضواً في المجمع اللغوية العربية .

ويقول الأستاذ عقيقي في كتابه أيضاً : « اشتهر بروكلمان بجم نشاطه ، وغزارة إنتاجه الذي اتّصف بالموضوعيّة والعمق والشمول والجِدّة ، مما جعله مرجعاً للمصنّفين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي ، إذ قلّ من لم يستند إليه أو يتوكّأ عليه في مصنّفاته » .

عجبت من قول الأستاذ عقيقي ، ودهشت من وصفه لبروكلمان « بالإمامة » في التاريخ الإسلامي ، وبالموضوعيّة والعمق والشمول والجِدّة ، وتذكّرت أن كتاب « تاريخ الشعوب الإسلامية » الذي قرأته منذ ربع قرن ، دوّنت على هوامشه عشرات الملاحظات ، وسجّلت عشرات الإجابات والرّدود على افتراءاته ودسائسه ، فعدت إلى الكتاب المذكور دارساً مراجعاً له من جديد ، فزاد عجبني واستغرابي من عربي يصف كارل بروكلمان « بالإمامة » في التاريخ الإسلامي ، وبالموضوعيّة والعمق والشمول والجِدّة ، ويجعله من يتكئ عليه المؤرّخون العرب في مصنّفاتهم .

وحَتّى الأستاذ د. حسين مؤنس في مقالته « كارل بروكلمان : مستشرق أسدى للفكر أجلّ الخدمات » ، والمنشورة في صفحة ٣٧ من العدد ١٣٩ في مجلة العربي يقول بعد حديثه عن « تاريخ الأدب العربي » : « وفي ذلك الوقت كان كتابه المجيد الثّاني (تاريخ الشعوب الإسلامية) يترجم إلى العربية ، وهذا

الكتاب ينطق بتقدير بروكلمان للعرب ومشاركته إياهم في كفاحهم للحرية والكرامة والرّخاء .

لقد شاركنا بروكلمان في كفاحنا للحرية والكرامة والرّخاء .

شاركنا ، عندما كان شعوره مع يهود بني قريظة ، فلم يعترف بخيانتهم أثناء غزوة الخندق وحصار الأحزاب للمدينة المنورة ، فقال : « كان سلوكهم غامضاً » ، ص ٥٤ ، بعد أن قال في ص ٥٢ : إجلاء بني النضير « لسبب وإي » ، وشاركنا بقوله : « فشل النبي في الحديبية ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر » ، ص ٥٦ .

وشاركنا ، بوصفه لأبي بكر الصديق : لم يحالفه التوفيق في الحكم على الحالة الدولية ، ص ٩٠ ، والصديق هو الذي خطط لانتصار أمتنا على الدولتين العالميتين آنذاك .

وشاركنا عندما جعل انتصار المسلمين في اليرموك ، سببه الأول والأخير « الأرمن الذين كانوا يؤلفون نصف جيش الروم ، كانوا حاقدين على الدولة البيزنطية غير راغبين في القتال » ، ص ٩٥ ، وجعله سبب انتصارات المسلمين في فتوحاتهم في بلاد الشام ومصر ، أمّا في الهند ، وفي إسبانية ، فيعيد سبب انتصار المسلمين إلى ضعف الحكام ، وتمزق تلك البلاد .

وشاركنا كفاحنا عندما قال ص ١٠٠ : « الغزاة العرب يجوسون خلال الديار غانمين مخربين » .

وشاركنا كفاحنا للحرية عندما قال مفترياً كاذباً : « وهدم صلاح الدين بعد تحرير القدس أماكن العبادة النصرانية » ، ص ٣٥٧ ، مع أن التاريخ سجل لصلاح الدين بحروف من نور ، أمره بصيانة وترميم أماكن العبادة النصرانية بعد تحرير القدس من أيدي الدّخلاء الصليبيين .

وشاركنا في كفاحنا للحرية والكرامة والرّخاء ، عندما وصف مجاهديننا في البحر المتوسط ، ضدّ الغزو الإسباني لشواطئنا العربيّة في الشّمال الإفريقي ، بأنّهم قراصنة ، وأعمالهم قرصنة ، ص : ٤٥٣ و ٤٧١ و ٦٢٠ .

وشاركنا في مشاعرنا - لا في كفاحنا - عندما وصف الإسلام ص ٦٠٦ بالمبدأ الذي أبلته الأيّام وطرحته وراءها ظهرتيّاً .

وشاركنا في كفاحنا عندما اعتبر الغزو الفرنسي للجزائر واستعمارها « فتحاً » ، ص ٦٢٠ ، بينما وصف جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي « بالتعصّب الدّيني » ، ص ٦٢٥ ، و ٦٢٧ .

وشاركنا في كفاحنا عندما جعل الفتح العربي الإسلامي وتحرير مصر « عبوديّة » تطاولت ألف سنة ، وأيّام الاستعمار البريطاني جاء سعد زغلول محرّراً موقظاً للمصريين ، ص ٧٣٣ .

أيّة مشاركة هذه ، لمن وصف زوراً وبهتاناً « بالإمامة » في التّاريخ الإسلامي ، وبالموضوعيّة والعمق والشّمول والجِدّة ، وأسلوب وعبارات التّهمك واضحة في كتابه « تاريخ الشعوب الإسلاميّة » ؟

سخرية لا تليق بمؤرّخ عادي ، فكيف تقبلها ، أو تتغاضى عنها وقد جاءتنا من « الإمام » في التّاريخ الإسلامي ؟

قال ص ٩٣ : « فقد كان فريق من العرب يعيشون في ظل الامبراطوريّة البيزنطيّة ، كما كان فريق منهم يعيشون في ظل الامبراطوريّة الفارسيّة ، فن الضروري أن يحمل إليهم إخوانهم المؤمنون بركات الإسلام وآلاءه » .

وقال في ص ١٩٩ : « فالواقع أن المأسّون انطلق في سبيله إلى طُوس مباشرة ، ليستمد القوّة من طريق الصلاة على ضريح أبيه الرّشيد » .

« ولما كان الإسلام الرُّشيد ينهى عن تصوير الكائنات الحيّة ، فلم يكن بدّ من أن تغطّى روائع الفسيفساء الذهبية التي تزيّن العقود ، وتمثّل الفنّ البيزنطي أحسن تمثيل ، بطبقة من الكلس » ، ص ٤٣٢ .

« أمّا في المراسيم المتعلقة بالشؤون المالية ، وفي القرارات المبنية على القانون الديني ، الشرع الحنيف ، فقد كان الدفترداريّة ، وقضاة العسكر ، يحملون الطغراء أيضاً » ، ص ٤٧٤ ، وكرر في هزء وسخرية (الشرع الشريف) ، ص ٤٧٩ أيضاً .

السُّلطان عبد العزيز « لا يتّصل إلّا بالدراويش ومفسّري القرآن ، وكان هؤلاء قد حشوا دماغه بأحلام خياليّة عن عظمة السُّلطان الدّينية ، وقوّته الدّوليّة » ، ص ٥٧٤ .

« وفي سنة ١٨٥٧ م ظهرت في قبيلة يَنّي نبيّة اسمها لالا فاطمة ، فاتبعها القبائل المجاورة لها .. » ، ص ٦٢٧ ..

هذا بعض هزئه وسخريته ، مع أن الإسلام لم يكن ينتظر كارل بروكلمان ليتحدّث عن « بركاته وآلائه » ، ولم يكن ينتظره ليقول عنه إنه رشيد ، فالإسلام عرفته الدّنيا قبل بروكلمان وبعده ، عرفته تشريعاً ما جراه تشريع آخر في إحقاقه للحقّ ، وتنفيذه للعدل ، ونظّرت له للإنسان إنساناً بغض النّظر عن جنسه ولونه وعقيدته . إنه رشيد لأنّه استطاع أن يقضي على جذور الوثنيّة في نفوس أتباعه ، فأبعدهم عن الخضوع لغير الله عزّ وجلّ ، فحقّق الوحدانيّة التي هي أساس الدّيانات السّماوية ، بينما نجد العالم من حول الإسلام غارقاً في بحر من الوثنيّة الملقّنة من عبادة بشر ، وتقديس لأوثان وصُور ..

وبروكلمان يعلم بأنّ لكلّ عقيدة فلسفة خاصّة بها ، ونظرة تنظر للحياة من خلالها ، ومن هذه الفلسفة والنّظرة ينبع الفنّ والأدب ، وكلّ شيء في حياة

أصحاب هذه العقيدة ، ولذلك فإن الفن عند المسلمين ، ليس بالضرورة أن يكون هو نفسه عند بيزنطة وغيرها ، ولا يقبل الإسلام أن تبقى فلسفة بيزنطة ، أو فلسفة الفرس ، أو بالأحرى فلسفة أصحاب تلك العقائد البائدة والوثنية هي الموجة السائدة في حركة الفن عند المسلمين ، ومن الطبيعي أن يغطي ما لا يتفق مع نظريته إلى الحياة ، وأن يحل محل ذلك فن منبثق من صميم المجتمع الجديد ، معبراً عما يختلج في نفوس أبناء هذا المجتمع ، ولذلك يمكن لبروكلمان - وأمثاله - أن يرى لوحات الفسيفساء الرائعة التي يتباكى على جمالها تزيّن جدران مسجد المسلمين في دمشق - المسجد الأموي - ، وليته يتباكى على ما هو أثنى من الفن ، ألا وهو الإنسان ، الذي اضطهد وعذب ونكّل به وقُتل على أيدي أبناء جلدته وعقيدته في إفريقية وآسية وأمريكة .

فالسخرية والهزء ، يدلان على تعصب وحقد ، كنا نتمنى أن يبتعد عنها من وُصِفَ (بالإمامة) في التاريخ الإسلامي ، مع الموضوعية والعمق والشمول والجِدَّة .

والسخرية والهزء يكفيان لإبعاد كلمة (المجيد) عن كتاب بروكلمان « تاريخ الشعوب الإسلامية » ، والذي لا ينطق بتقدير بروكلمان للعرب ، ولا بمشاركته إيّاهم في كفاحهم للحرية والكرامة والرّخاء .

وهذا وحده خطب جلل ، فكيف ببروكلمان ، وقد كتب تاريخنا منطلقاً من التشكيك ، والرّفْض العشوائي ، معتمداً على الروايات الضعيفة الشّاذّة ، والتي رفضها النّقاد الباحثون ، واستغريها العلماء المطلعون ، بل وأشاروا إلى نشوزها ، لكن بروكلمان - كغيره من المستشرقين الذين قدّموا ما برضي رجال الكنيسة ، ولم يكتبوا حقائق تثيرهم - بنى فكره ورأيه مسبقاً في نفسه ، ثم جاء إلى وقائع التاريخ العربي الإسلامي يطوّعها لما يؤيّد فكرته وخطّته المرسومة ، يطمس ، ويضعّف ، ويمرّض ما دون ذلك ، فقدّم بروكلمان تاريخنا ، موسّعاً الجزئية ، متغاضياً عن الكلية ، مع تفسيرات عجيبة ، ومواقف غريبة ، وأقوال ينبوعها الذّوق السّليم ،

والفكر الموضوعي ، لا العميق والشامل ، بل وحتى غير العميق ، وغير الشامل .

وقبل البدء بدراسة ما افتراه (الموضوعي) بروكلمان على تاريخنا ، وتفنيده ما دسّه (إمام التاريخ الإسلامي) على تراثنا ورجالنا ، نذكّر بأنّه كان عليه بدل اعتماده على مؤلفات المستشرقين الذين سبقوه ، أمثال يوليوس فلهاوزن ، ونولدكه ، ولامانس .. - وهذا ما سنفضّله في خاتمة هذا الكتاب - كان يجب عليه الرجوع إلى المصادر العربيّة ، إلى معين تاريخنا ، ليقراها قراءة شاملة ، ويتمثّل مادتها تمثلاً كاملاً ، ويعيش أجواءها ويبتثها ، وينهل منها بعد تجرّده من سيطرة اللاهوتيّين ، وهذا بالنسبة للمؤرخ كما لاحظ المستشرق الألماني بيكر C. H. Becker هو الطّريق الوحيد الصحيح ، لا الطريق الوحيد الممكن لكتابة تاريخ أمة .

لماذا العودة إلى فلهاوزن ، ونولدكه ، ولامانس .. والبعد عن الطّبري وإهماله ، مع ابن الأثير ، وابن سعد .. وأي عذر لبروكلمان ، وهو الذي يتقن العربيّة قراءة وكتابة ؟

فأين الموضوعية ؟

وأين العمق والشمول والجِدّة ؟

وأين تقدير العرب ومشاركتهم في كفاحهم للحرية والكرامة والرّخاء ؟

فإلى « كارل بروكلمان في الميزان » ، وأي ميزان هو ؟ إنّه ميزان الحقائق التاريخيّة ، ميزان يزن به كلّ دارس مطّلع على تاريخنا الإسلامي ، ميزان يزن والأصابع والأهواء بعيدة عن كفتيه .

نسأله تعالى التّوفيق ، وله الحمد أوّلاً وآخرأ .

شوقي أبو خليل

دمشق في : ١ المحرم الحرام ١٤٠٨ هـ
٢٥ آب (أغسطس) ١٩٨٧ م

كارل بروكلمان

Carl Brockelmann

[١٨٦٨/٩/١٧ م - ١٩٥٦/٥/٦ م]

✧ وكانت أشد أمانى إلحاحاً عليّ أن أعيش
فيما وراء البحار على ظهر سفينة ، أو
ترجماً ، أو مبشراً دينياً .

كارل بروكلمان مستشرق ألماني ، ولد في مدينة روستوك في ١٨٦٨/٩/١٧ م ^(١) ،
وفي المدرسة الثانوية في روستوك بدأت تظهر ميوله إلى الدراسات الشرقية ، يقول
بروكلمان : وفي الصفوف العليا - من المدرسة الثانوية - تجلّت الميول التي ستسيطر
على حياتي بكل وضوح ، وكانت هناك جمعية للقراءة ، تجتمع مرتين في الأسبوع ،
وفي يوم الأربعاء كنا نقرأ مجلة « الجلوبس : الكرة الأرضية » ، وفي يوم السبت نقرأ
مجلة العالم الخارجي Ausland ، وهاتان المجلتان كانتا أبرز المجلات الجغرافية ، وكان
ذلك الوقت هو وقت الاكتشافات الجغرافية العظيمة في آسيا وإفريقية ^(٢) ، وعن
هذا الطريق ارتبط خيالي بالشرق ، وكنت أهتم في المقام الأول بما يرد فيها من

(١) مراجع هذه الترجمة :

- موسوعة المستشرقين ، د. عبد الرحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى : شباط
(فبراير) ١٩٨٤

- المستشرقون ، نجيب العقيقي ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، (دون تاريخ) .

- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة : تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤

(٢) لم يكن هدف الكشوف الجغرافية الأوروبية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ،
معرفة طريق مباشر إلى بلاد التوابل في جنوب شرقي آسيا فقط ، بل : التبشير بالنصرانية ،
والوصول إلى ذهب الهند لتغطية نفقات تحرير حملة صليبية جديدة ، انظر : « في طلب التوابل »
تأليف : سونيا ي. هاو ، مشروع ١٠٠٠ كتاب (٩٨) ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، سنة ١٩٥٧

أخبار عن اللغات ، ولهذا فإنني وأنا لا أزال تلميذاً في المدرسة الثانوية ، وضعت مشروعاً لكتاب نحو لهجة البانتو ، التي كان يتكلم بها في المستعمرة البرتغالية أنجولا ، وقد احتفظت بهذا المخطوط وقتاً قليلاً ، وكانت أشد أمانى إلحاحاً علي أن أعيش فيما وراء البحار ، وشجع على هذه الأمنية الأحوال السائدة آنذاك في روستوك ، ذلك أنه بسبب انحدار حياة الأعمال في روستوك ، فقد سعى كثيرون من التجار إلى العمل فيما وراء البحار^(١) .

وكان أمله أن يعمل فيما وراء البحار طبيباً على ظهر سفينة ، أو ترجاناً ، أو مبشراً دينياً ، ولهذا السبب كان يحضر دروس الأستاذ نرجر Nerger معلم اللغة العربية في تلك المدرسة الثانوية ، ويقول إنه اتقن العبرية إلى درجة أنه استطاع أن يترجم في امتحان العبرية في البكالوريا نصاً عبرياً عن سفر (عموص) غير مشكول ، ترجمة تلقائية شفوية ، كذلك بدأ يدرس اللغة الآرامية الكتابية ، واللغة السريانية ، وهو لا يزال طالباً في الثانوي .

وفي ربيع ١٨٨٨ م ، انتقل إلى استراسبورج لحضور محاضرات نولدكه^(٢) ،

(١) موسوعة المشرقين ، ص ٥٧ ، عن ترجمته الذاتية ص ٢٠ ، والتي فرغ بروكلان منها في مدينة هاله ١٩٤٠/٩/١٤ م ، أي قبل ثلاثة أيام من بلوغه سن التاسعة والسبعين ، ونشر هذه الترجمة رودلف زلهيم Rudolf Sellheim ، الأستاذ في جامعة فرنكفورت ، والمشرى على مجلة : Oriens .

(٢) تيودور نولدكه Theodor Noldeke : [١٨٣٦ - ١٩٣١ م] يعد شيخ المشرقين الألمان غير مدافع ، اتقن العربية والسريانية والعبرية استطاع مع استطالة عمره حتى جاوز الرابعة والتسعين أن يظفر بهذه المكانة ليس فقط بين المشرقين الألمان ، بل بين المشرقين جميعاً ، حصل على الدكتوراه في ١٨٥٦ م برسالة عن تاريخ القرآن وهو في سن العشرين ، وفي عام ١٨٦١ م عُيِّن معيداً في جامعة جيتنجن ، وكُلِّف بإلقاء دروس في التفسير عن سفر أشعيا ، ودروس في نحو اللغة العربية ، ثم عُيِّن في جامعة كيل Kiel أستاذاً للغات السامية ابتداء من ١٨٦٤ ، وحتى ١٨٧٢ م ، وفي ربيع ١٨٧٢ م عُيِّن أستاذاً في جامعة استراسبورج حتى ١٩٢٠ م ، قضى السنوات الأخيرة من حياته في منزل ابنه في مدينة كارلسروهه Karlsruhe ، حيث توفي في ٢٥ كانون الأول « ديسمبر » ١٩٣٠ م .

يقول بروكلمان : « وعنده تعلمت الكثير جداً ، وعند نولدكه كنت أنا الوحيد في معظم المحاضرات » .

ودرس بروكلمان على هوبشمن Hubschmann اللُّغة السَّنسكريتيَّة ، واللُّغة الأرمنيَّة مع راهبين أرمنيين ، أرادا الحصول على الدكتوراه على هوبشمن ، كما درس على دومشَن Dumischen اللُّغة المصريَّة ، قال بروكلمان : وكان يرافقني يهودي غني يُدعى اشبيجلبرج Spiegelberg ، حصل بعد ذلك على الدكتوراه من جامعة استراسبورج .

وفي ١٨٨٩ - ١٨٩٠ م ، كَلَّفه نولدكه القيام بدراسة عن : (العلاقة بين كتاب « الكامل في التاريخ لابن كثير » ، وكتاب « أخبار الرُّسل والملوك للطُّبري ») ، ونالت هذه الرسالة الجائزة في ربيع ١٨٩٠ م ، ومكَّنه ذلك من طبعها كرسالة للدكتوراه الأولى ، فطُبعت في استراسبورج سنة ١٨٩٠ م .

وأمضى بروكلمان صيف ١٨٩٠ م مدرِّساً خصوصيًّا في بيت العالم الفسيولوجي جلوش Glotz في منزله الرُّيفي في نويدورف Neudorf .

وفي أوَّل تشرين الأوَّل « أكتوبر » ١٨٩٠ م ، عُيِّن مدرِّساً في المدرسة البروتستنتيَّة في استراسبورج ، أوَّلًا تحت التَّمارين ، وبعد ذلك مدرِّساً مساعدًا ، وفي الوقت ذاته ، واصل دراساته العربيَّة ، وبدعوة من نولدكه - وكان قد قرأ معه في شتاء ١٨٨٨ - ١٨٨٩ م القسم الأوَّل من « ديوان لبيد » ، الَّذي نُشِرَ في قُبينة - نُشِرَ التَّرجمة الألمانيَّة الَّتِي قام بها أنطوان هوبر Anton Huber الَّذي توفي مبكرًا ، وبعد ذلك نشر القسم الثَّاني من هذا الديوان ، وما تبقى للبيد من شذرات وترجمه إلى الألمانيَّة ، مستنداً إلى دراسات تمهيدِيَّة ، أعدها هوبر وهنريش توربكه ، وصدر ذلك كُلُّه في ١٨٩١ م .

ولكن ، ما لبث أن تبَيَّن لبروكلمان أَنَّهُ لا مستقبل له في هذه المدرسة

الثانوية البروتستنتية ، لهذا قرّر أن يُعِدَّ نفسه للانخراط في التدريس الجامعي ، ومن أجل هذا انتقل في تشرين الثاني « نوفمبر » ١٨٩٢ م إلى برسلاو ، وحصل على دكتوراه التأهيل للتدريس في ٢٨ كانون الثاني « يناير » ١٨٩٣ م برسالة عنوانها : « عبد الرحمن أبو الفرج ابن الجوزي : تلقيح فهم أهل الآثار ، في مختصر السّير والأخبار ، بحث وفقاً لمخطوط برلين » .

وفي تلك الأثناء أيضاً ، كان بروكلمان مشغولاً بجمع مواد لـ « معجم سرياني » . (صدر في شباط « فبراير » ١٨٩٥ م) .

وكان سخاو^(١) Sachau قد دعاه للاشتراك في إعداد نشرة نقدية محققة لـ « طبقات ابن سعد » ، والسّفر إلى لندن واسطنبول للاطلاع على مخطوطات هذا الكتاب ، فسافر بروكلمان في آب « أغسطس » ١٨٩٥ م إلى لندن ، وفي أيلول « سبتمبر » سافر إلى اسطنبول ، حيث أمضى شتاء عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ م ، ولم يكتفِ بأداء المهمة الموكولة إليه الخاصّة بطبقات ابن سعد ، بل انتهاز الفرصة لنسخ نسخة من « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، وظهر هذا المجلّد بتحقيقه في برلين ١٩٠٤ م ، وقد طُبِع بعناية أكاديمية برلين ، الّتي تولّت الإنفاق على الكتاب بكل أجزائه .

أمّا فيما يتّصل بنشر « عيون الأخبار » ، فقد تولّى أمره بنفسه ، ووجد في E. Feilber في قيار ، ناشراً مستعداً لتحمل نفقات الطّبع بشرط أن يقدّم إليه بروكلمان في الوقت نفسه كتاباً آخر أوفر حظاً من الرّواج ، لأنّ النّص العربي

(١) كارل إدوارد سخاو Karl Edward Sachau [١٨٤٥ - ١٩٣٠ م] ، مستشرق ألماني ، عُيّن في سنة ١٨٧٦ م أستاذاً للّغات الشرقية في برلين ، ساج في بلاد الشام والعراق ، ومما نشره بالعربية « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، و « تحقيق ما للهند من مقولة » كلاهما للبيروني ، وأربعة مجلدات من « طبقات ابن سعد » ، وللعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي ، [الأعلام : ٢١١/٥] .

« لعيون الأخبار » لا يهم إلا القليل من المتخصصين في المكتبات العامة ، وكان هذا الشرط ، أو الاقتراح الشرط ، هو الذي دفع بروكلمان إلى تصنيف كتابه « تاريخ الأدب العربي » *Geschichte der Arabischen Litteratur* ، وقد ظهر النصف الأول من الجزء الأول في ١٨٩٧ م ، والنصف الثاني في ١٨٩٨ م ، والجزء الثاني في ١٩٠٢ م . ثم أعاد بروكلمان طبع الطبعة الأولى في مجلدين مع توسعات كثيرة ، وجعلها متمشية مع طبعة الملحق هذه في ليدن ١٩٤٣ - ١٩٤٩ م ، وهكذا أصبح الكتاب في وضعه النهائي مؤلفاً من خمسة مجلدات : المجلد الأول والثاني هما الأصل ، والمجلدات الثلاثة الباقية هي الملحق .

وفي ربيع ١٩٠٣ م دُعي بروكلمان ليكون أستاذاً ذا كرسي في جامعة كينجزبرج ، وبقي في هذا المنصب حتى ١٩١٠ م ، وهنا ألف كتابه « موجز النحو المقارن للغات السامية » .

وفي ١٩١٠ م دُعي ليشغل أستاذاً في جامعة هاله *Halle* ، حيث بقي فيها إلى سنة ١٩٢٢ م .

وفي ١٩٢١ م عُرض كرسي الدراسات الشرقية في جامعة بون على بروكلمان ، كما عرض عليه الكرسي الذي كان يشغله سخاو ، ففضل كرسي برلين ، لأنه رجا أن يجد في برلين أنسب الظروف والإمكانات لمواصلة عمله ، لكن لم تتحقق آماله ، ولم يستطع الانتقال للإقامة في برلين لمدة يومين في الأسبوع طوال فصلين دراسيين ، ولهذا تخلى عن منصبه في برلين بعد عام من تعيينه ، وعاد إلى جامعة برسلاو ، وفي صيف ١٩٣٢ م انتخب مديراً لجامعة برسلاو ، لكنه حدث في أثناء إدارته أن قام الطلاب النازيون بمظاهرات ضد تعيين الأستاذ *Cohn* - وهو يهودي - مما أدى إلى إغلاق الجامعة لمدة ثلاثة أيام ، ولما كان بروكلمان قد حاول الدفاع عن حرية الجامعة في اختيار الأساتذة - أيّاً كانت ديانتهم - فإنه اضطر إلى الاستقالة من منصبه مديراً للجامعة في شهر آذار « مارس » ١٩٣٣ م ، بعد أن

كارل بروكلمان (٢)

- ١٧ -

استولى النازيون على السلطة في ٣٠ كانون الثاني « يناير » ١٩٣٣ م ، لكنه احتفظ بكرسي الأستاذية في الجامعة ، وفي خريف ١٩٣٥ م تقاعد ، وانتقل في ربيع ١٩٣٧ م إلى مدينة هاله ، لأنه أراد الاستفادة من مكتبة « الجمعية الشرقية الألمانية » .

وكان بروكلمان في الفترة من ١٨٩٥ إلى ١٩١٤ م يتناول بالتعليق ما يصدر عن تاريخ الإسلام من مؤلفات ، وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة عاد ليكتب المجلد الكبير « تاريخ الشعوب الإسلامية » *Geschichte der Volker und Staaten* . وقد ظهر سنة ١٩٣٩ م ، وهذا الكتاب يعطي صورة شاملة لتاريخ الشعوب الإسلامية كلها منذ بداية الإسلام حتى ١٩٣٩ م معتمداً على يوليوس فلهاوزن^(١) ، وليون كيتاني^(٢) .. فيما يتعلق بتاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، والذي ترجمه إلى العربية سنة ١٩٤٩ الأستاذان منير بعلبكي ونبية فارس ، كما ترجم إلى التركية والهولندية والفرنسية .

وترجم إلى الانكليزية ونُشر في ١٩٤٧ م مع فصل عن الحوادث من ١٩٣٩ إلى

(١) يوليوس فلهاوزن (١٨٤٤ - ١٩١٨ م) ، مستشرق ألماني ، درس اللاهوت ، ثم اللغات الشرقية في مدينة هاله ، أشهر كتبه « تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » ، ترجمه د. محمد عبد الهادي أبو ريدة إلى العربية ضمن سلسلة « الألف كتاب : ١٣٦ » القاهرة : ١٩٥٨ ، فنبّه إلى « أن آراء مؤلف هذا الكتاب تحسب عليه وحده » ، لانحرافه في نظرياته عن الحقيقة ، وله تأليف عن الأسفار المقدسة ، ذهب فيها مذهب الإباحيين ، [انظر مقدمات الترجمة العربية « لتاريخ الدولة العربية » ، والأعلام : ٢٦٠/٨] .

(٢) ليون كيتاني (١٨٦٩ - ١٩٣٦ م) ، مستشرق إيطالي مؤرخ ، أمير ، كان يحسن سبع لغات منها العربية والفارسية ، قام برحلات إلى الشرق ، ولا سيما الهند وإيران ومصر والشام ، ألف كتاب تاريخ الإسلام ، وطبع منه سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٨ ثمانية مجلدات ضخمة ، انتهى فيها إلى سنة ٤٠ للهجرة ، وكان يرجو أن يفسح في أجله ليكمل القرن الأول للإسلام في ٢٥ مجلداً ، [الأعلام : ٢٥٠/٥] .

١٩٤٧ كتبه يهودي متعصب متميز يدعى M. Perlmann ، شوّه فيه القضية الفلسطينية^(١) .

وكان على بروكلمان في ١٩٤٥ بوصفه متقاعداً من جامعة برسلاو أن يعمل مؤقتاً في منصب محافظ لمكتبة « الجمعية الشرقيّة الألمانيّة » ، فصرف كل همّه لإعادة تنظيمها ، واستعادة ما تُقِل من كتبها ومخطوطاتها ، وفي صيف ١٩٤٧ عُيّن أستاذاً شرفياً ، وألقى دروساً ومحاضراتٍ - بناء على رغبته - في التّركيات ، فدرّس لطلابه اللّغة التركية الحديثة ، وقرأ معهم كتب التاريخ العثماني القديمة ، وفُسّر وثائق تركية ، وألقى محاضرات في تاريخ الدّولة العثمانيّة ، كما ألقى في الوقت ذاته ، دروساً في اللّغات السريانيّة ، والأكديّة ، والآشوريّة ، والبابليّة ، والحبشيّة ، والقبطيّة ، وشرح مصادر مكتوبة بالسريانيّة تتعلّق بتاريخ الإسلام ، ونصوصاً يهوديّة آراميّة ، مع دروس في الفارسيّة الحديثة ، والفارسيّة الوسطى ، والأرمنيّة ، وهكذا كان بروكلمان يتقن إحدى عشرة لغة شرقيّة هي : العربيّة ، السريانيّة ، العبريّة ، الآشوريّة ، البابليّة ، الحبشيّة ، الفارسيّة الوسطى ، الفارسيّة الحديثة ، الأرمنيّة ، التركيّة ، القبطيّة ، إلى جانب إتقانه لليونانيّة ، واللاتينيّة ، والفرنسيّة ، والإيطاليّة ، والإنكليزيّة ، والإسبانيّة ..

وفي صيف ١٩٥٣ تقاعد بروكلمان للمرّة الثّانية ، لكنه واصل التّدريس مع ذلك ، وفي أثناء قدّاس ليلة عيد الميلاد في كانون الأوّل « ديسمبر » ١٩٥٤ أصيب بنزلة برد كانت عاقبتها وخيمة على صحته ، بيد أنّه استمر في عمله مستعيناً بواحد من أواخر طلابه ، هو د. كونرديفون رابناو Rabenau ، فاستطاع أن يتمّ كتابه

(١) قال يوهان فوك Johann Fock في مقالة عن بروكلمان (في ZDMG ج ١٠٨ ، ١٩٥٨ ، ص ١٢ : « وأبدى فيها رأياً يخالف تمام المخالفة رأي بروكلمان » !! [موسوعة المشرقين ، ص ٦٥] .

الأخير في « نظم اللغة العبرية » ، وقد ظهر هذا الكتاب بعد وفاته التي كانت في : ١٩٥٦/٥/٦ م .

انتخب بروكلمان في مجامع : برلين ، وليزيج ، وبودابست ، وبون ، ودمشق ، وجمعيات أسيوية كثيرة .



أهم مؤلفاته^(١) :

بناسبة بلوغ بروكلمان سن السبعين ، صنّف أوتو اشبيس Otto Spies سنة ١٩٣٨ ثبّتاً بمؤلفات بروكلمان ، وكان هذا الثبت الأساس في ثبت أوفى بمؤلفات بروكلمان يشمل على خمس مئة وخمسة وخمسين رقماً بين تأليف كتاب أو تحقيق أو مقالة أو بحث أو سيرة .. وأهمها :

- العلاقة بين كتاب الكامل في التاريخ لابن كثير ، وكتاب أخبار الرسل والملوك للطبري ، رسالة الدكتوراه ، جامعة ستراسبورج ، ١٨٩٠ م .

- ديوان لبيد مترجم عن طبعة قديمة ومزود بحواشي ، والقسم الثاني من ديوان لبيد المنشور وفقاً لمخلفات الدكتور أ. هوبر ، طبع في ليدن ١٨٩١ م .

- كتاب تلقيح فهم أهل الآثار في مختصر السّير والأخبار ، تأليف عبد الرحمن أبي الفرج ابن الجوزي ، رسالة الأستاذية ، جامعة برسلاو ، ١٨٩٣ م .

- المعجم السرياني ، طبع في برلين ١٨٩٥ م .

(١) عن « المستشرقون » ، ص ٤٢٤ وما بعدها ، و « المنتقى من دراسات المستشرقين » ، دراسات مختلفة في الثقافة العربية » ، جمعها ونقلها إلى العربية وعلّق عليها د. صلاح الدين المنجد ، الجزء الأول ، ص ٢٦ وما بعدها ، ونحن نورد أعلاه أهم ما كتب أو حقّق .. خصوصاً ما يهم تاريخنا ولفتنا وتراثنا العربي الإسلامي .

- كتاب الوفا في فضائل المصطفى عن مخطوط ليدن ، طبع في ليبتسك ، ١٨٩٥ م .
- تاريخ الآداب العربية ، المجلد الأول ، طبع في فيمار ١٨٩٨ م .
- رسالة في لحن العامة للكسائي ، ١٨٩٨ م .
- مقالة في مؤلفات ابن المقفع المختصة بعلم البيان والبلاغة ، ١٨٩٩ م .
- كتاب عيون الأخبار تأليف ابن قتيبة ، الجزء الأول ، طبع في برلين ١٩٠٠ م .
- مختصر تاريخ الآداب العربية ، طبع في ليبتسك ، ١٩٠١ م .
- بيان عربي في جزيرة مالطة ، ١٩٠١ م .
- تاريخ الآداب العربية ، المجلد الثاني ، طبع في فيمار ١٩٠٢ م .
- كتاب عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، الجزء الثاني ، ستراسبورج ١٩٠٣ م .
- فهرست المخطوطات العربية والفارسية والتركية والعبرانية الموجودة في مكتبة برسلاو البلدية ، طبع في برسلاو سنة ١٩٠٣ م .
- كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ، المجلد الثامن الخاص بسيرة النساء ، ليدن ١٩٠٤ م .
- الأجرومية العربية لسوتسين ، الطبعة الخامسة المصححة والمحققة ، طبع في برلين ١٩٠٤ م .
- في كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجُمحي ، مقالة في كتاب الدراسات الشرقية المقدمة إلى نولدكه ، ١٩٠٥ م .
- كتاب عيون الأخبار ، تأليف ابن قتيبة ، الجزء الثالث ، ستراسبورج ، ١٩٠٦ م .
- تاريخ الآداب النصرانية في الشرق : الآداب السريانية والعربية النصرانية ، ليبتسك ، ١٩٠٧ م .

- كتاب المفصل في علم النحو والصرف المقارن للغات السامية ، المجلد الأول : علم الأصوات والصرف ، برلين ، ١٩٠٧ م .
- كتاب عيون الأخبار ، تأليف ابن قتيبة ، الجزء الرابع ، ستراسبورج ، ١٩٠٨ م .
- فهرست المخطوطات الشرقية - من دون العبرانية - الموجودة في مكتبة هبورج البلدية ، القسم الأول : المخطوطات العربية والفارسية والتركية والملقية والقبطية والسريانية والحبشية ، هبورج ، ١٩٠٨ م .
- مختصر كتاب علم النحو والصرف المقارن للغات السامية ، برلين ، ١٩٠٨ م .
- الأجرومية العربية لسوتسين ، الطبعة السادسة المنقحة ، برلين ، ١٩٠٩ م .
- ملاحظات شتى عن تاريخ الآداب العربية ، مجموعة دراسات مقدمة للأستاذ ديرنبورج ، ١٩٠٩ م .
- تاريخ الإسلام من بدئه إلى الوقت الحاضر ، دراسة في كتاب تاريخ العالم المنشور لبفلوجسك - هارتونج ، المجلد الثالث ، ص ١٣١ - ٣١٩ برلين ، ١٩١٠ م .
- كتاب المفصل في علم النحو والصرف المقارن للغات السامية ، المجلد الثاني ، علم النحو ، طبع في برلين من سنة ١٩١١ - إلى سنة ١٩١٣ م .
- تصحيحات كتاب عيون الأخبار ، تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، المطبوع في مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٣ - ١٣٤٩ ، مجلة الجمع العلمي العربي في دمشق ، مجلد ١٤ ، ص ١١١ - ١٢٦ ، سنة ١٩٣٦ م .
- تاريخ الآداب العربية ، الذيل الأول ، ليدن ، سنة ١٩٣٧ .
- تاريخ الآداب العربية ، الذيل الثاني ، ليدن ، سنة ١٩٣٨ .

- تأريخ الشعوب والدول الإسلامية ، مونغن وبرلين ، سنة ١٩٣٩ .
- تأريخ الآداب العربية ، الذيل الثالث ، ليدن ، سنة ١٩٤٢ .
- وشارك في « دائرة المعارف الإسلامية » بالمقالات التالية :

في المجلد الأول : عبد الغني ، عبد القادر البغدادي ، العبدري ، الأبيوردي ،
أبكار يوس ، أبو العيناء ، أبو عمرو ، أبو الفرج الأصبهاني ، أبو فراس ، أبو
الحاسن ، أبو نعيم ، أبو نواس ، أبو شامة ، أبو عبيد ، أبو زيد ، عدي بن
الرقاع ، العيدروسي ، عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعونية ، الأخضرى ،
الأخفش ، الأعلم أبو الحجاج الشنقري ، علي بن جهم السامي ، علي بن ميمون ،
علي بن ظافر ، علي خان ، آلوسي زاده ، الأعمش ، الأمدي ، الأنباري ،
الenchوري ، الأنطاكي ، عنتر بن شداد ، عرب فقيه ، الآداب العربية (مضمّن في
مقالة « جزيرة العرب ») ، العسكري ، الأزهرى ، البيضاوي ، البيهقي ،
بختيشوع ، الباقلاني ، البكري ، ابن العبري ، البيروني ، البرزالي ، بقطر ،
البخاري ، البلقيني ، البوريني ، البرزلي ، البستي ، إبراهيم بن محمد الدسوقي ،
داود ، الدواني ، الدمشقي ، السدينوري ، الجنائي ، الجواليقي ، الجوبري ،
الجرجاني ، الجويني ، (١٩١٣ م) .

وفي المجلد الثاني : الفاكهي ، فارس الشدياق ، الفاسي ، الفهري ،
الفيروزابادي ، الغزولي ، الحلبي ، ابن عبد ربه ، ابن أبي حجلة ، ابن عساكر ،
ابن عطاء الله ، ابن أعثم الكوفي ، ابن بطوطة ، ابن الجوزي ، ابن حبان ، ابن
قتيبة ، ابن نباته ، ابن السراج ، ابن سُرَيْج ، عمران بن قحطبان السدوسي ،
القاضي الفاضل ، الكلبي ، كليلة ودمنة ، القلقشندي ، القليوبي ، كال الدين ،
الكرائيسي ، كرشوني ، القسطلاني ، القفطي ، الكندي ، الكسائي ، قدامة ،
(١٩٢٧ م) .

وفي المجلد الرابع : السَّعدي ، السيد الحميري ، سالم ، السُّكري ، الثَّعالي ،
عشاق ، الوشاء ، اليعقوبي ، يوسف خاص الحاجب ، الزَّحشري ، (١٩٣٤ م) .

وفي المجلد الثالث : ليبد ، المدائني ، الميداني ، مقامة ، المقريزي ، مثل ،
الماوردي ، الميورقي ، مهري ، ميخائيل صباغ ، مسعر بن مهلهل أبودلف ،
المبرد ، محمد مرتضى ، المرتضى الشَّريف ، النجاشي ، النهرواني ، النسوي ،
النووي ، العلَّيمي ، الرَّاغب الأصفهاني ، (١٩٣٦ م) .



وبعد ..

فيآلى تفنيد ودحض افتراءات ودسائس وأغاليط .. بروكلمان ، والتي
سنوردها حسب تسلسل ورودها في صفحات (تاريخ الشعوب الإسلامية) ،
وذلك بعد تصنيفها في خمس فصول هي :

١ - افتراءات بروكلمان على تاريخنا العربي الإسلامي حتى وفاة
الرسول ﷺ .

٢ - افتراءات بروكلمان على عصر الخلفاء الراشدين .

٣ - افتراءات بروكلمان على العصر الأموي .

٤ - افتراءات بروكلمان على العصر العباسي .

٥ - افتراءات بروكلمان على تاريخنا الحديث .



افتراءات بروكلمان على تاريخنا العربي الإسلامي حتى وفاة الرسول ﷺ

يقول بروكلمان :

« وابتداء من الألف الثالث قبل الميلاد ، شرعت جماعات من شعوب الجزيرة العربية ، تندفع نحو الشمال في فترات من القحط بالغة الخطورة ، فإذا بالبابلين يَغشُون العراق ، ويقتبسون فيه ثقافة السُومريين ، وإذا بالكنعانيين واليهود والآراميين يهبطون سوريّة وفلسطين ، ويستعيرون مع الفينيقيين ثقافة الجنس المعروف بجنس الشرق الأدنى .. » ، ص : ١٥ .

ونحن نتساءل : هل وُجِدَت اليهوديّة ، وبالتالي اليهود ، في هذه الفترة من التاريخ القديم ؟

وهل كانت اليهوديّة واليهود في قلب جزيرة العرب ، حتّى يقال خرج اليهود من جزيرة العرب مع الكنعانيين والآراميين^(١) ؟

(١) طبعاً لم يخرجوا ، ولم يكونوا في الجزيرة العربية ، ونظريّة كآل صليبي في كتابه « التوراة جاءت من جزيرة العرب » ، نظرية ميتة منذ نُشرت ، ومن أقوى الرّدود عليها ونقضها : مقال الشيخ حمد الجاسر في « دراسات يمنيّة » العدد ١٩/١٩٨٥ ، وبما قاله : « الصليبي لم يفرّق بين أسماء الموضع وأسماء أفعاذ العشائر ، ومنهجه في البحث خاطئ ومبني على أوهام ومقارنات متناقضة » . ومقال الدكتور محمود زايد في « دراسات يمنيّة » العدد المذكور حيث قال : متى كانت التوراة مرجعاً تاريخياً لأرض التوراة ؟ التوراة محرّفة ، وآخر التّحريفات وقعت قبل أشهر فقط ، =

هل عُرِفَت اليهوديَّة قبل النَّبي موسى ؟

فَتى وجد موسى وأين كان ؟

لقد أصبح بحوزة العلماء معلومات وافية عن الهجرات العربيَّة القديمة من شبه جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب ، جميعها ثابتة ومؤكَّدة ، استناداً إلى النُّصوص والوثائق المكتشفة حديثاً ، وكلها تؤكِّد بما لا يترك مجالاً للشك أنَّ العرب القدماء ، هم الَّذِينَ سادوا منطقة الشَّرق الأوسط ، ومن ضمنها فلسطين .

ويميِّز الباحثون بين أربع تسميات ، هي : العبرانيُّون ، الإسرائيليُّون ، الموسويُّون ، اليهود .

فالعبرانيُّون طائفة من القبائل العربيَّة في شمال جزيرة العرب في بادية الشام ، في الألف الثانية قبل الميلاد ، وكانت كلمة عبري مرادفة لابن الصَّحراء ، أو ابن البادية بوجه عام ، ولم يكن للإسرائيليِّين والموسويِّين واليهود أيُّ وجود بعد ، ويتَّضح من ذلك أنَّ عصر إبراهيم الخليل ، عصر عربي بذاته ، ليست له أيَّة صلة بعصر اليهود^(١) .

أمَّا مصطلح « إسرائيل » ، فالمقصود به يعقوب حفيد إبراهيم الخليل ، وأبناؤه هم بنو إسرائيل الَّذِينَ ورد ذكرهم في الأسفار ، ودورهم محصور في منطقة حَرَّان^(٢) ، حيث وطنهم الأصلي الَّذي ولدوا ونشؤوا فيه . أما فلسطين ، فهي

= ومقال السيد مفيد عرنوق في « المنبر » تحت عنوان : « اليهود ليسوا عرباً ، وعسير ليست يهودية » ، ونظرية صليبي تدل اليهود ، من حيث يدري أو لا يدري ، على الطريق المؤدِّية إلى تحقيق مطامعهم التوسُّعيَّة .

(١) العرب واليهود في التَّاريخ ، د. أحمد سوسة ، ص ٨٦ وما بعدها .

(٢) حَرَّان : قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرُّها يوم ، وبين الرُّقة يومان ، وهي على طريق الموصل الشَّام وآسية الصغرى ، [معجم البلدان : ٢٢٥/٢] ، فهي شمالي أرض الجزيرة السورية ، ضمن الأراضي التركية حالياً .

أرض غربتهم ، وقد وجدوا في القرن السّابع عشر قبل الميلاد ، وهو نفس عهد إبراهيم الخليل ، وانتهى هذا الدّور الَّذِي ظهرت فيه تسمية « إسرائيل » بعد أن هاجرت أسرة يعقوب إلى مصر ، وانضمت إلى يوسف عليه السّلام ، واندجبت وذابت في البيئة المصريّة كلياً .

ثمّ جاء دور « قوم موسى » في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، والموسويّون كما تدلّ الأحداث ، هم من الجنود الفارّين على أرجح الاحتمالات ، تصحبهم جماعة كبيرة من بقايا الهكسوس ، وهؤلاء كانوا يدينون هم والنّبي موسى بدين التّوحيد الخالص ، الَّذِي دعا إليه أخناتون فرعون مصر ، وهو غير دين اليهود الَّذِي يدعو إلى عبادة الإله « يَهُوَه » الخاصّ بهم ، بوصفهم الشّعب المختار ، وقد نسبته كتبة التّوراة في وقت لاحق إلى موسى زوراً^(١) .

ويستدلّ الباحثون من المدوّنات التاريخيّة القديمة ، على أن موسى كان قبل أن يوحى إليه بالنبوّة ، قائداً مصرياً ، نشأ وتربّى في البلاط الفرعوني ، قاد حملة إلى الحبشة ، وشريعته لم يعثر على أيّ أثر لها ، ثمّ أخذ الموسويّون بلغة كنعان وثقافتها وتقاليدها ، ومارسوا حتّى ديانتها الوثنيّة في أكثر فترات وجودهم بين الكنعانيين وسكان فلسطين العرب القدماء الأصليين ، وانحرفوا عن ديانة موسى وشريعته ، هؤلاء هم الَّذِينَ صاروا يُعرّفون فيما بعد باليهود^(٢) .

فتسمية « يهود » ظهرت في القرن السّادس قبل الميلاد ، وهي التّسمية الّتي أطلقت على بقايا جماعة يهوذا الَّذِينَ سبّاهم بُبُوخَذَنْصَر^(٣) إلى بابل في القرن السّادس قبل الميلاد ، وقد سمّوا كذلك نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة ، وقد اقتبس هؤلاء قبيل السّبي لهجتهم العبريّة المقتبسة من الآراميّة ، وبها دوّنوا

(١) العرب واليهود ، د. أحمد سوسة ، ص : ٨٨

(٢) المرجع السّابق ، ص : ٨٩

(٣) نبوخذ نصر (البابلي) : [٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م] .

التَّوراة التي بين أيدينا في الأسر في بابل ، أي بعد زمن موسى بثمانى مئة عام ، لذلك صارت تعرف هذه اللهجة (بأرامية التَّوراة) ، وقد استعملوا الحرف المسمى بالربع ، وهو مقتبس من الخط الآرامي القديم ، وهذه بلا شك غير الشريعة التي أنزلت على موسى عليه السَّلام ، ويمكن أن نطليق عليها اسم (توراة اليهود) ، لتمييزها عن (توراة موسى)^(١) .

وبعد هذا كله.. لماذا يقحم بروكلمان اليهود بين الكنعانيين والآراميين ؟
إننا سنلمس - بوضوح - تحييز بروكلمان إلى جانب اليهود ، وذلك في فقرات أخرى أيضاً !!



« ولا تزال بعض الأحاديث تسمح للعربي الدَّاخل في الإسلام أن يقول في دعائه « اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً » ، ص : ١٨ .

ماذا يقصد بروكلمان بقوله : بعض الأحاديث ؟

في تراث العرب المسلمين ، إذا قيل « الأحاديث » ، يكون المفهوم منها أقوال رسول الله ﷺ ، فحق سمعنا بحديث يقول بهذا الدعاء .

وعبارة : « اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً » وردت في حديث عن أبي هريرة ، قال : « قام رسول الله ﷺ إلى الصَّلَاة ، وقفنا معه ، فقال أعرابي وهو - أي رسول الله ﷺ - في الصَّلَاة : اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فلما سلَّم النبي ﷺ قال للأعرابي : لقد حجَّرت واسعاً ، يريد رحمة الله » .

(١) المرجع السابق ، ص : ٨٩ أيضاً .

وفي فتح الباري ، كتاب الأدب ، الحديث ٦٠١٠ : [٤٣٨/١٠ و ٤٣٩] ، أنه
الذي بال في المسجد ، وأنه ذو الخويصرة . أو الأقرع بن حابس . وفي كتاب
الوضوء ص ٣٢٤ : فتناوله الناس بالسنتهم .. قاموا إليه فزجروه ، وعند
البيهقي : فصاح الناس به . وهذا ﷺ الموقف ، فقال الأعرابي : اللهم ارحمني
ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فردّ ﷺ العبارة بقوله : « لقد حجرت
واسعاً »^(١) .

ولا ندري كيف فهم بروكلمان - وهو الذي لا ينقصه فهم - من هذه
العبارة ، أن الأحاديث تسمح للعربي الداخل في الإسلام أن يقول في دعائه :
اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ؟!



« وليس من شك في أن زوال هذه الرقابة القويّة عن الحدود ، قد يشرّ
الفتح الإسلامي لتلك البلاد أيضاً فيما بعد »^(٢) ، ص : ٢٤ .

ولنحسب نسأل بروكلمان : منذ متى كانت الرقابة القويّة ؟ ومتى ضعفت ،
ولماذا ؟

ونذكره بأن المسلمين انتصروا في جزيرتهم العربية على أبناء عمومتهم ، ولم

(١) وخاض فيليب جيتي في كتابه « تاريخ العرب المطول » هذه العبارة أيضاً ، انظر ردنا عليه في
ص ١٢٣ في كتاب : « موضوعيّة فيليب جيتي في كتابه تاريخ العرب المطول » .

(٢) هذا الرأي وجدناه أيضاً عند جرجي زيدان في روايته « فتاة غسان » عندما جعل سبب انتصار
المسلمين اختلال أمور الفرس والروم ، وتهديم حصونهم وقلاعهم ؟! « جرجي زيدان في الميزان » ،
ص ٤٢ وما بعدها . ووجدناه أيضاً عند فيليب جيتي عندما قال في تاريخه المطول ، ص ١٩٤ :
« ولقد يشرّ الفتح للعرب أسباب منها أن فارس وبيزنطة كانتا قد وهنتا بسبب الحرب فيهما
أجيالاً طويلاً ، فاضطرتتا هذه الحرب إلى إرهاب رعاياهما بضرائب قاسية أدّت إلى نفورهم » .

يكونوا في حرب من الحروب يوماً ، أضعاف عدوهم ، بل العكس صحيح ، مع أن البنية الجسدية واحدة ، والبيئة واحدة ، والظروف واحدة .

ولم يدخل المسلمون حرباً وهم أكثر عدداً وعدداً من عدوهم في جبهتي الروم والفرس ، ألا يكفي أن مائة ألف منتصر كانوا مع الروم في اليرموك ؟!

هذا .. وترتيبات الروم والفرس عريقة ، وإمداداتهم وعتادهم عظيمان ، فمن يدرس جبهات القتال الرومية والفارسية يجد خبرة سابقة ، وتجربة عريقة .

ولم يحارب المسلمون الروم ثم الفرس ، بل فتحوا جبهتين في آن واحد ، يرموك مع قادسية ، مصر مع نهاوند ..

لقد حاربوا دولتين كل منهما أغنى منهم بالرجال والمال والخبرة الطويلة السابقة ، فلماذا يغمط بروكلمان وينقص من روعة الفتح الإسلامي ؟

ولن نجعل الجهل بتاريخنا جواباً عن تساؤلنا !!

☆ ☆ ☆

« ومن هنا قدس العرب القدماء ضروباً من الحجارة في سُلْع^(١) وغيرها من بلاد العرب ، كما يقدس المسلمون الحجر الأسود القائم في زاوية من الكعبة في مكة » ، ص ٢٥/٢٤ .

« وفي وسط مكة تقوم الكعبة ، وهي بناء ذو أربع زوايا .. يحتضن في إحداها الحجر الأسود ، ولعله أقدم وثن عُبد في تلك الديار » ، ص ٣١ .

كان على بروكلمان أن يعرف مكانة الحجر الأسود عند عرب الجاهلية ، وسبب تقديسهم له ، وسبب بقاء تقديسه بعد الإسلام .

(١) سُلْع : السلوع : شقوق في الجبال ، واحدها سُلْع وبلْع . وسُلْع : جبل بسوق المدينة ، قال الأزهرى : سلع موضع بقرب المدينة ، [معجم البلدان : ٢٣٦/٣] .

وكان عليه أن يميّز بين الوثن والصّم من جهة ، وبين الحجر الأسود الذي لم نسمع في الروايات التاريخية شيئاً عن عبادة العرب له .

لقد اتخذ العرب آلهتهم في الجاهليّة من أشياء لا تحصى ، ومع ذلك لم يرد مطلقاً أن الحجر الأسود كان ضمن آلهتهم ، بل كانت له منزلة محترمة ، لأنّه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة ، وبناء على ذلك ، الإسلام لم يقر « وثنيّة » كانت في الجاهليّة ، واستلام الحجر الأسود في الحج يرجع إلى اعتبار رمزي ، لا إلى تقديس الحجر ذاته ، لقد أعادت قريش بناء الكعبة ، واختلفت بطونها على من يعيد الحجر إلى مكانه ، وأقبل محمد الأمين قبل البعثة بخمس سنوات ، فدعوه لرجاحة عقله ، وحبّهم له ، فهو « الأمين » . ليفصل في الأمر ، فبسط رداءه ، ووضع فيه الحجر ، وجاء من كل بطن رجل ، حمل من طرف الرداء ، حتّى أوصله عليه الصلاة والسّلام إلى موضعه ، فوضعه بيده الشريفة ، وأنهى مشكلة حرجة^(١) .

وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً أمام هذا الحجر ، وقال : إنني أعلم أنّك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنّي رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك .

ولهذا فليس تقبيله واجباً على الناس ، ولا يشترط بالحاج تقبيله ، وسبب احترامه : أنه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة ليس غير . ولم يكن في يوم من الأيام وثناً يعبد ، لا في الجاهليّة ، ولا في الإسلام .



« لسنا نعلم علّم اليقين ، السنّة التي وُلِدَ فيها النّبيُّ .. وليس يبدو أنّ عشيرته ، هاشم ، قد لعبت دوراً على شيء من الامتياز في مكّة ، والواقع أن

(١) ابن هشام : ١٧٩/١ ، السيرة النبويّة لابن كثير : ٢٨٠/١ ، البداية والنهاية : ٢٩٨/٢ ، الطبري :

الروايات الإسلامية قد سعت إلى أن تحيط النبي بهالة من التمجيد منذ اللحظة الأولى ، ولكن هذا لا ينفي حقيقة مقررة ، وهي أن أسرته كانت تعاني في الحقبه التي وُلِدَ فيها ظروفًا قاسية جداً .. » ، ص : ٣٢ .

ما كان محمد ﷺ من أسرة مغمورة أو مجهولة ، وجاءت ولادته ﷺ وسط ظروف جعلتها ولادة مشهورة ، يتحدث الناس عنها ، من زواج أبيه وسفره ووفاته ، وكفالة جدّه له ، وهو زعيم قومه .. كل ذلك جعل من هذه الولادة أمراً مشهوراً محدّداً ، وربط الرواة ولادته ﷺ بحادث مهم ، هو حملة الأحباش على مكة المكرمة ، فذكروا ولادته ﷺ في عام الفيل .

هذه حقائق تاريخية ثابتة ، ولأمر ما في نفس بروكلمان يتجاهلها !!

أمّا قول بروكلمان : « والواقع أن الروايات الإسلامية قد سعت إلى أن تحيط النبي بهالة من التمجيد منذ اللحظة الأولى » ، فقول يشتم منه صليبيّة وقحة ، وكأنّ النبي ﷺ إنسان عادي مغمور ألصقت به الروايات الإسلامية ما ليس فيه من المجد .

الروايات الإسلامية لم تسع ، الواقع هو الذي سجّل عظمة محمد بن عبد الله ﷺ منذ اللحظة الأولى ، وبذور ذلك المجد ، أثمرت فتوحاً وحضارة خالدة من قلب الصّين إلى قلب فرنسة ، وما زال هذا المجد باقياً يكبر في نفوس مئات مئات الملايين من المسلمين في كل بقاع الأرض ، وعدد غير قليل من فلاسفة وعلماء ومؤرخي الغرب ، جعلوه ﷺ أعظم عظماء التاريخ ، ولو لم يكن على حظ من المجد والعزة والعناية الإلهية منذ اللحظة الأولى ، لما كانت القرون التالية خالدة بحضارة معينها كتاب الله ، وسنة رسوله .

أمّا « أن أسرته كانت تعاني في الحقبه التي وُلِدَ فيها ظروفًا قاسية جداً .. » ، فهذا مرفوض أيضاً ، فقد كانت أسرته تعمل بالتجارة ، وهي بين

عسر ويسر شأن كلَّ عامل جادّ مكافح ، ولكن يجب أن يعلم بروكلمان أن شرف أسرته ﷺ وعظمتها ومكانتها لم ينشأ من مال وغنى ، بل جعل الله عزَّ وجلَّ شرف نبيِّه بأنَّه من خيرهم نفساً وبيتاً ، وهذا أبو سفيان الذي كان من أعلى قریش عندما سأله هرقل : كيف نسبه فيكم ؟ يجيب بالصدق والأمانة لأنَّه يخشى أن تحفظ عنه كذبة في العرب : محض ، أوسطنا نسباً^(١) ، فقال هرقل : وكذلك يأخذ الله النَّبي إذا أخذه ، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً .

وبذلك يتقرَّر دون أدنى شك أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كان رفيع النَّسب ، وليس المراد بشرف النَّسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير ، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة ، فإن المال لا يكون نسباً ، وقد كان عمُّه أبو طالب كبير البطحاء وشریفها ، وكان مع ذلك في المال قلاً ، والنَّبي ﷺ مع علوِّ نسبه بين العرب كان فقيراً ، وكان يتيماً ، وكان يرعى الغنم ، فليس علو النَّسب والشَّرَف ملازماً لكثرة المال ، أو قوَّة البطش ، أو عظمة السُّلطان ، إنَّما شرف النَّسب أن يكون من كورة يعلو أحادها عن التَّنقص^(٢) .



« ولسنا نملك بيِّنة موثوقاً بها عن حياة النَّبيِّ الأولى إلا هذه الآيات القرآنيَّة من سورة الضُّحى (٩٣ : ٦ - ١١) : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ .. » ، ص ٢٣ .

إنَّ من هو أقلُّ بكثير من الرُّسول الكريم ﷺ كشاعر أو خطيب أو وحيه في قبيلة .. يذكر الرواة عن نشأته ومراحل حياته الشَّيء الكثير ، فكيف بمحمد ﷺ ، وهو حفيد عبد المطلب زعيم قومه ؟

(١) فتح الباري : ٢٤/١ ، الطبري : ٨٥/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ١٤٤/٢

(٢) خاتم النَّبيين ﷺ ، الإمام محمد أبو زهرة : ٨٢/١

وماذا يقصد بروكلمان بالبيّنة الموثوق بها في تلك الفترة من حياة الجاهليّة ؟
وهل يطلب بيّنات مماثلة عند دراسته لحياة شخصيّات أخرى من تلك
الفترة ؟ فالرواية الشفهيّة هي الطّريقة التي يتناقل بها عرب الجاهليّة أخبارهم ..
وجاءت الآيات الكريمة لتؤكد ما كان يتحدث به النّاس عن نشأة رسولهم ﷺ .



« وتذهب الروايات إلى أنّه اتّصل في رحلاته ببعض اليهود والنّصارى ، أمّا
في مكّة نفسها ، فلعلّه اتّصل بجماعات من النّصارى كانت معرفتهم بالتّوراة
والإنجيل هزيلة إلى حدّ بعيد ، ومع الأيّام أخذ الإيمان بالله يعمر قلبه ، ويملك
عليه نفسه ، فيتجلّى له فراغ الآلهة الأخرى ، ولكنه على ما يظهر ، اعترف في
السّنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثّلاث اللّواتي كان مواطنوه يعتبرونها
بنات الله ، ولقد أشار إليهنّ في الآيات الموحاة إليه بقوله : تلك الغرانيق
العلّى ، وإنّ شفاعتهن ترتضى » ، ص ٣٤ .

دسّ رخيص ..

« اتّصل ﷺ في رحلاته ببعض اليهود والنّصارى » . عبارة تثبت إقحام
بروكلمان لكلمة « يهود » بشكل غير علمي ، وكلمة « رحلاته » كلمة لا تحمل
الحقيقة ، فرسول الله ﷺ سافر مرّة مع عمّه أبي طالب إلى بصرى التي كانت موطناً
لصوامع الرّهبان المنصرفين لعبادتهم ، ومنهم بحيرى الذي كان على علم بالتّوراة
والإنجيل . ثم سافر مرّة أخرى مع ميسرة ، خادم خديجة بنت خويلد .

وهنا يتساءل المرء : لماذا خرج بحيرى من صومعته ؟

ويكون الجواب : لأن قافلة قريش نزلت قرب صومعته ، ولأنه رأى غمامة
تظلّ محمد بن عبد الله .. فقال رجل من قريش لما رأى بحيرى : والله إن لك يا بحيرى
لشأناً اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنّا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟

وتأخر ﷺ عن طعام دعا إليه بحيرى ، وبقي عند الرواحل ، ثم دُعِيَ فاخصَّه بحيرى بعنايته ، واستحلفه باللات والعزى . على مذهب قريش . فقال ﷺ : لا تسألني باللات والعزى شيئاً ، ثم نظر بحيرى إلى ظهره ﷺ فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، وسأل بحيرى أبا طالب : من يكون ؟ فأجاب : ابني ، بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، أبو طالب : فإنه ابن أخي ، بحيرى : فما فعل أبوه ؟ أبو طالب : مات وأمه حبلى به ، قال بحيرى : صدقت ، ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر من اليهود^(١) ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم .

هذا هو اللقاء « والاتصال » في رحلاته ببعض اليهود والنصارى ، محمد غلام صغير^(٢) ، واللقاء علني بوجود كل أفراد القافلة التجارية دون استثناء .

ويتساءل العاقل الموضوعي : هل يمكن أن يتلقى محمد الغلام الصغير شيئاً يذكر في هذا اللقاء^(٣) ؟ .

ويتساءل أيضاً : لماذا لم يجمع بحيرى قومه الروم من حوله ، فيغلب من سواهم ، بعد أن يدعي هذه العلوم والمبادئ والأفكار .. التي قدمها محمد ؟

وهل بحيرى رئيس أكاديمية لتخريج الأنبياء ، والكتب المعجزة ؟

وزمن الزيارة قصير ، وحجم القرآن الكريم حجم كبير ، والطفل أمي ، لو اختار قارئاً متعلماً شاباً ؟

(١) لأنهم يريدون النبي من نسل إسحاق ، لا من نسل إسماعيل .

(٢) كان عمره ﷺ تسع سنوات ، كما في : الكامل في التاريخ : ٢٢/١ ، والطبري : ٢٧٨/٢ ، والروض الأثف : ٢٠٦/١ ، وعيون الأثر : ٤٠/١ ، أما في الوقف بأحوال المصطفى لابن الجوزي : ١٢١/١ : « لما خرج أبو طالب إلى الشام . خرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى وهو ابن اثني عشرة سنة » .

(٣) قال عدد من المستشرقين ، مثل : سيدو ، نورمان دنيال ، لوبون .. : القرآن من تأليف الراهب بحيرى ، أعطاه محمداً أثناء وجوده في بلاد الشام .

وما العلاقة بين محمد وبخيري ؟ مانوعها ؟ ولماذا اختار طفلاً من مكة ؟
وقريش حاضرة ، لو أعطاه شيئاً لقاتل لرسول الله ﷺ عندما قال : إنني
رسول مرسل من عند الله ، إنك أخذت ما تقول من بخيري وبوجود رجال كثير
مننا^(١) .

وأحداث ما بعد الهجرة مثلاً ، أين كان منها بخيري ؟
والإعجاز الغيبي والعلمي في القرآن الكريم ، فوق طاقة البشر ، وبخيري بشر
طبعاً !!

ومن أين لبخيري هذا الإعجاز اللغوي ؟ ولو كان القرآن من إنتاج بخيري ،
لأمكن محاكاته ، والتّحدي قائم في كل زمان ومكان ، فهل استطاع بشر
محاكاته ؟!

وهنا نؤكد .. أن بخيري هو المستفيد الأوّل والأخير من لقائه بمحمد بن
عبد الله ، فلولا هذا اللقاء ، لاندثر اسمه كما اندثرت أسماء ألوف الرهبان المنصرفين
في صوامعهم للعبادة ، من قبل بخيري ومن بعده.

أمّا قول بروكلمان : « أمّا في مكّة نفسها ، فلعله اتّصل بجماعات من
النّصارى ، كانت معرفتهم بالتّوراة والإنجيل هزيلة إلى حدّ بعيد .. » .
دسّ أرخص ..

أين هي الجماعات النّصرانيّة في مكّة ؟ ومن هم أشهر رجالها ؟
وهل ما جاء به محمد ﷺ يؤكّد ويثبت صحّة ما كان يعتقد به النّصارى من
تثليث ، أو تأليه للمسيح عليه السّلام ؟

(١) ولقال ذلك هرقل وملك غسان أيضاً عندما دعاهم ﷺ إلى الإسلام ديناً سهوياً موحى به من الله
إليه .

وإن قيل : علّمه ورقة بن نوفل ، ذلك الفكر النصراني الكبير ، الذي « أعطى محمداً مفاتيح السماء ، فدخل وأقفل الباب ، ورمى بالمفاتيح في رمال الصحراء ، فما تبعه أحد » ، و « محمد كان لا يملك بين يديه سوى إنجيل القس ورقة ، وهو لا يؤمن بالوهمية ولا بصلب ، فصدّقه ودعا إليه قومه » ^(١) .

وأبسط ردّاً على هذه الخيالات :

توفي ورقة بن نوفل سنة ٦١١ م = ١٢ قبل الهجرة ^(٢) ، فأين آراؤه وأفكاره وتوجيهه من الأحداث التي رافقت الإسلام ونبيّ الإسلام من سنة ١٢ قبل الهجرة ، إلى سنة ١١ هجرية ؟ ومن كان يعلم محمداً أثناء هذه الأعوام ؟

ولماذا لم يدّع ورقة هذا المجد لنفسه ؟

ولماذا لم يصنّع ورقة عشرات الأنبياء ؟

والإعجاز العلمي ، ونبوءات القرآن الكريم ، أين قدرة البشر منها ؟

ولو علمه ﷺ ورقة ، ما آمن بمحمد رسول الله قرشي واحد !!

ويتابع بروكلمان ساديره قائلًا : « ومع الأيَّام أخذ الإيمان بالله يعمر قلبه ، ويملك عليه نفسه ، فيتجلّى له فراغ الآلهة الأخرى » .

هل سَمِعَ أو عَرِفَ أو نُقِلَ عن أحد من المسلمين الأوائل ، وهم معروفون بالاسم ، أنه دُعِيَ إلى الإيمان بأحد الأوثان أو الأصنام ؟

العكس هو الصحيح ، فمحمد ما سجد لصنم قط ، ولا تقرب إلى صنم قط ، ولا أقسم بـصنم قط ، لا قبل البعثة ولا بعدها ، فالبداية واضحة جليّة جريئة في

(١) من كتاب « قس ونبي » المنحول لاسم خيالي هو : أبو موسى الحريري ، والذي اعتمده إلياس المر في كتابه « الإسلام بدعة نصرانية » .

(٢) الأعلام : ١١٥/٨

تأكيداً على وحدانية الله ، وعدم وجود أي شريك له في ألوهيته : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، [سورة الإخلاص] .

أما حكاية الغرائيق التي يذكّرنا بها بروكلمان ، فهي حكاية باطلة مرفوضة ، لضعف تَقْلِيَتِها ، واضطراب روايتها ، وانقطاع إسناده ، فلو وقعت لارتد كثيرون ممن أسلموا ، وهذا ما لم يكن .

سئل ابن حزيمة عن هذه الحكاية ، فقال : من وضع الزنادقة ، وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، ورواية البخاري عارية عن ذكر الغرائيق ، وفي تفسير ابن كثير ٢٢٩/٣ ، إن حديث الغرائيق مرسل ، والحديث المرسل حديث سقط منه الصحابي ، وفي مصطلح الحديث قاعدة تنص على أن إرسال الحديث سبب لضعفه . وما يضعف الحكاية أيضاً ، ويؤكد أنها موضوعة ، اختلاف النص عند الذين وضعوها في كتبهم ، ومن هذه الروايات :

تلك الغرائيق العلى ، وأن شفاعتهن لترجى
تلك الغرائيق العلى ، وأن شفاعتهن ترتضى
وإن شفاعتها لترجى ، وإنها لمع الغرائيق العلى
وإنهن الغرائيق العلى ، وإن شفاعتهن لترجى

هذا .. والعرب لم يصفوا آلهتهم بالغرائيق قطعاً^(١) ، لم يأت لهم في نظم ، ولا في خطب ، ولم يكن ذلك جارياً على ألسنتهم .

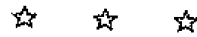
يقول د . عمر فروخ رداً على بروكلمان في إيراد هذه الحكاية^(٢) : وأمسك

(١) في اللسان ، مادة : غرق « ٢٨٦/١٠ » : الغُرُوق : الناعم المنتشر من النبات ، أو الأبيض الشاب الناعم الجميل ، أو طائر الكركي .

(٢) هامش ص ٢٥ في كتاب : تاريخ الشعوب الإسلامية .

المبشرون ، وبعض المستشرقين بهذه الرواية ، وزعموا أنَّ الرسول ﷺ إنما فعل ذلك لما قاومه مشركو مكة ، فأحَبَّ أن يتقرب منهم ، فمدح آلهتهم فعدوا هذا تراجعاً عن تشدده في التوحيد ومهاجمة الأصنام ، ولقد وجدت أن أحسن ردَّ على هذه الفرية ما ذكره العالم الهندي مولانا محمد علي^(١) :

قال : إن هذه الرواية وردت عند الواقدي وعند الطبري ، ومع ذلك فإنها لا ظل لها من الحقيقة ، فإنَّ كلَّ عمل من أعمال رسول الله ﷺ مناقض لمثل هذا الاتجاه ، أضف إلى ذلك أنَّ الواقدي معروف بسرد الإسرائيليات وبسرد الخرافات ، وكذلك الطبري معروف بالجمع الكثير ، وباستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة ، على أننا لو رجعنا إلى رواية محمد بن إسحاق ، أو إلى صحيح البخاري ، وهو الذي لم يغادر من حياة الرسول ﷺ شيئاً إلا ذكره ، لما رأينا لقصة الغرانيق أثراً ، وابن إسحاق جاء قبل الواقدي بأربعين سنة ، وقبل الطبري بنحو مئة وخمسين سنة أو تزيد ، أمَّا البخاري ، فقد كان معاصراً للواقدي ، ومع ذلك لم يذكر القصة ، والواقدي معروف عند المحدثين بأنه يضع الأحاديث ، وأنه غير ثقة فيما يروي . ولم يذكر هذه الحكاية أحداً من رواة الحديث .



« فكان - ﷺ - يضح في أعماق نفسه هذا السؤال : إلى متى يبدِّهم الله في ضلالهم ، ما دام هو عز وجل قد تجلَّى ، آخر الأمر ، للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه ؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة ، رسالة النبوة ، ولكن حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة ، ولم تتبدَّد شكوكه إلا بعد أن خضع لإحدى الخبرات الخارقة في غار حراء ، ذلك بأن

(١) عن : The Holy Qurán, Second Edition. Lahore 1920, P. 1016, note, 2382 :

طائفاً تجلّى له هناك يوماً ، هو الملك جبريل ، على ما تتّله محمد فيما بعد ،
ص ٣٦ .

من أين توصّل بروكلمان إلى هذا التساؤل في نفس الرسول ﷺ قبل
بعثته ؟

ولماذا هذا الدّس : وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنّه مدعو إلى أداء هذه
الرّسالة ، رسالة النّبوة ، ولكن حياؤه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوّته ... ؟
وهل يقول بروكلمان أنّ مثل ذلك حدث للنبي موسى ، وللنبي عيسى عليهما
السّلام ؟ أم أنّ ذلك لم يحدث إلّا لمحمد ﷺ ؟

وما هو المقصود من إحدى الخبرات الخارقة ؟ نحن نسمع بمحادثة خارقة ، أما
خبرة خارقة ، فما سمعنا بها ، وكأنّ بروكلمان منعه « خجله غير الفطري » ، من
أن يقول : وتلقّى محمد ﷺ الوحي بواسطة الملاك جبريل .



« وفضلاً عن ذلك فقد كره أفراد هذه الطبقة الحاكمة أن يروا إلى محمد ، وهو
الذي ينتسب إلى بيت دون بيوتهم مقاماً ، على رأس جماعة تشكّل ، على
صغرها ، دولة ضمن دولة ، ومن هنا كان عليه - ﷺ - أن يدفع كيد خصومه في
آيات تزايد عنفها مع الأيام ، حتّى لقد انتهت إلى أن تصبح لعنات عليهم ،
ولقد سمّى عمّه أبا لهب نفسه في إحداها » ، ص ٣٨ .

إنّ تناقضاً واضحاً في هذا القول يتجلّى عند القراءة الأولى ، كيف يعتبر
بروكلمان أنّ هناك طبقة حاكمة ناقّة على محمد ﷺ ، الذي ينتسب إلى بيت دون
بيوتهم مقاماً ، لأنّه شكّل ما يشبه دولة ضمن دولة ، فكيف يكون عمّه أبو
لهب ، وهو من بيت محمد ﷺ وليس من بيت الطبقة الحاكمة ، إلى جانب تلك

الطَّبِيقَةُ ، ولم يكن إلى جانب ابن بيته . وابن طبِيقته ؟ ونحن - مع بروكلمان على علم بما كان عليه العرب من عصبية قَبَلِيَّة ، وعصبية عائلية !! .

وعبارة « دولة ضمن دولة » تصوُّر خاطئ ، أين كانت هذه الدَّولة الَّتِي يتحدث عنها بروكلمان ؟ وكيف يريدنا أن نصدِّق ما يقول ، ونحن نعلم علم اليقين ، أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لم يكن من أسرة أقل شأنًا من غيرها في مَكَّة ؟ بل كان من أسرة هي في مقدِّمة أسر مَكَّة منزلة ومكانة ، ويكفي أن يقال : إنَّه حفيد عبد المطلب ، فهو من أسرة سدنة الكعبة ، وقادة قوافل التجارة .

« وهو - ﷺ - الَّذِي ينتسب إلى بيت دون بيوتهم مقاماً » نأسف لصدوره عن مطلع مثل بروكلمان ، « دون بيوتهم مقاماً » ، كيف ؟ ولجده قصي سدانة البيت الحرام ، فهو بيت العرب الدِّيني . ومستقر شرفهم ، إليه يحجُّون ، وبه يؤمنون ، وله إمرة مَكَّة كلها ، حيث أُمِنُ العرب المتنازعين في بواديهم ، لقداستها في نفوسهم ، وحيث قریش أعلى العرب فكراً ، وأشرفهم نسباً ، وأفصحهم لساناً ، وله الحجابة ، مفاتيح البيت بيده ، وله اللِّواء ، عقد راية الحرب ، وله رئاسة « دار الندوة » ، دار الشُّورى لقریش ، ثمَّ لكل العرب من بعد ذلك ، والَّتِي كانت تعقد في دار قصي ذاته .

ولجده عبد المطلب رئاسة قریش ، استحقَّها بقوة نفسه ، ورفيع خلقه ، وبماحته ، في طلعتة يُمِنُ وعزيمة وقوَّة ، مع هدوء وطيب في غير هوان ، وهو الَّذِي حفر زمزم - بعد أن ردمتها جرهم - برويا صادقة مكررة ، فرأى ﷺ في حضائنه عزَّ الرِّجال ، وحكمة الشُّيوخ ، وعطف الأبوَّة .

وأُمُّه ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، تشبه البتول في سموها وصبرها

لقد كان الأجدر ببروكلمان - وهو العالم الَّذِي لا تغيب عنه مثل هذه الحقائق

يقيناً - أن يقول : « وهو الذي ينتسب إلى بيت من أرفع بيوتهم مقاماً » ، كي لا يهبط مستوى ما قدم من نتاج وأفكار في أعين المطلعين أو الباحثين .



« أمّا الشعائر الدينيّة الأخرى ، كالدعاء إلى الله ، وبخاصّة في الصلوات الليليّة ، الذي كان محمد يمارسه في حرارة على منوال الزهاد النصارى ، فكانت تعتبر مسائل خاصّة » ، ص ٢٨ .

يحرص بروكلمان على إقحام وزج اليهود مرة ، والنصارى مرّة أخرى ، أو كليهما معاً .

« على منوال الزهاد النصارى » ، عبارة مرفوضة ، إذ ليس في الإسلام رهبانيّة تشبه رهبانية زهاد النصارى ، لا من قريب ولا من بعيد ، فلا رهبانيّة في الإسلام .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال : أوصني ، فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله ، وتلاوة القرآن ، فإنه روحك في السماء ، وذكرك في الأرض^(١) .

وعن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ، قال : لما كان من أمر عثمان بن مظعون ، الذي كان ممن ترك النساء ، بعث إليه رسول الله ﷺ فقال : يا عثمان ، إنني لم أؤمر بالرهبانيّة ، أرغبت عن سنّي ... إنّ لأهلك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً^(٢) ...

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٨٢/٣

(٢) سنن الدارمي : ١٣٢/٢

وفي رواية : دخلت خولة بنت حكيم^(١) على عائشة وهي باذة الهيئة^(٢) ، فسألته : ما شأنك ؟ فقالت : زوجي - وهو عثمان بن مظعون - يقوم الليل ، ويصوم النهار ، فدخل النبي ﷺ ، فذكرت عائشة ذلك له ، فلقي ﷺ عثمان ، فقال : يا عثمان ، إن الرهبانية لم تكتب علينا ، أفالك في أسوة ، فوالله إني أخشاكم لله ، وأحفظكم لحدوده^(٣) .



« وقد يكون - ﷺ - مديناً ببعض هذه الأخطاء للأساطير اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي ، ولكنه مدين بذلك ديناً أكبر للمعلمين المسيحيين الذين عرفوه بإنجيل الطفولة ، ومحدث أهل الكهف السبعة ، وحديث الإسكندر ، وغيرها من الموضوعات التي تتواتر في كتب العصر الوسيط ، وكان إلى جانب ذلك قصص عربية ، كتلك التي تتحدث عن هلاك قبيلة ثمود ، التي قد يكون وضع لها قصة النبي صالح الشانوية كملحق ضروري ، وههنا ، في هذه القصص نجد أن أسلوبه ينزع إلى أن يكون أكثر إسهاباً وأقل توقفاً ، كما نجد أنه كان يوشح هذه القصص بمناقشات خطابية تدور على محور إثبات وجود الله بمختلف الدلائل التي تقدمها الطبيعة » ص : ٢٩ .

نستغرب مثل هذه الأقاويل من إنسان يضيف على نفسه ، وعلى كتاباته ، الصفة العلمية والموضوعية ، فهل درس بروكلمان سيرة النبي العربي ﷺ دراسة تفصيلية دقيقة ، قبل أن ينبري للكتابة عنه ؟ ولو أنه فعل ذلك ، ما نظنه كتب عن محمد بن عبد الله ﷺ وكأنه درس اليهودية وكتبها وأساطيرها وأدائها في

(١) وهي خولة بنت حكيم السلمية ، غير خولة بنت حكيم الأنصارية ، انظر أسد الغابة : ٩٢/٧

(٢) باذة الهيئة : رثة الثياب ، وسيئة الحال ، [اللسان : بذ] .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٢٢٦/٦

إحدى مدارس اليهود ، أو في كَلِيَّة لاهوتية لهم ، أو كأنه نشأ وترعرع في بيئة يهودية ، ونسي بروكلمان - أو تناسى - أنَّ خصومة المشركين له في مكَّة ، كانت أشد من خصومته له ، ومع ذلك ما سمحت لهم أخلاقهم أن يصلوا إلى هذه الدرجة من الدُّس والكذب والاختلاق ، ولو عرفوا شيئاً قليلاً من ذلك لما قَصَّروا في استغلاله ، وهم الذين لم يتركوا باباً ، ولا ثغرة ، ولا مجالاً من قريب أو بعيد ، إلاَّ وحاولوا استغلاله لمهاجمة محمد ودعوته .

ومن يقرأ النصَّ السابق يتصوَّر أنَّ محمدًا ﷺ عاش في رومة ، وفي إحدى مدارس الفاتيكان ، أو في إحدى البعثات التبشيرية التي ملأت الدنيا بعدا أرض الحجاز ، حيث نشأ محمد ﷺ وترعرع ، وما رأى حوله إلاَّ صوراً مشوَّهة من بَقِيَّة ديانة إبراهيم عليه السَّلام ، وصوراً أقوى وأوسع من الوثنية لا حصر لأصنامها وأوثانها ، فهل كان هُبَّـل يعلم قصص التَّامود في مكَّة ، أم كانت اللَّات والعزَّى تعلم الإنجيل لأطفال مكَّة ؟

إنَّ التَّعصُّب والحقد ، وإنَّ وُجِدَ العِلْم ، يصلان بالإنسان إلى الدَّرَك الأسفل من الجهل والضَّلال .



« كان لا يعتبر ، في ذلك الوقت ، أنَّ دينه - ﷺ - يختلف اختلافاً كبيراً عن النَّصرانية ، فقد وجَّه أتباعه إلى أراضي النَّجاشي ، أقرب ممثِّل سياسي للنَّصرانية يمكن أن يحتمي به » ، ص ٤٠ .

إنَّ توجيه محمد ﷺ لأتباعه إلى أرض النَّجاشي النَّصراني ، لا تعني أبداً أنَّ محمدًا ﷺ كان يعتبر دينه الجديد - الإسلام - غير مختلف عن النَّصرانية ، وكان الأقرب إلى العقل والمنطق والواقع أن يقول بأنَّ النَّبيَّ العربيَّ محمدًا ﷺ رأى في النَّجاشي والأحباش أناساً يعتنقون ديناً سَـاويًا ، مما يجعلهم يقدرُّون المؤمنين

بدين سماوي ، خصوصاً وأنَّ ما بيدهم من كتب دينيَّة ، قد بشرت على لسان المسيح عيسى عليه السَّلام بنبيٍّ يأتي من بعده ، ومن الطَّبيعي والبدهي ، ألاَّ يجد المسلمون من النَّصارى إلاَّ الحبَّ والمودَّة والحماية ، فكلاهما حملة رسالة سماويَّة ، والمسلمون يعظِّمون السيِّد المسيح ، ويبجلُّون أمَّه الطَّاهرة البتول .

قال ﷺ لمن هاجر فارّاً بدينه من اضطهاد قريش : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإنَّ بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه » ^(١) ، فخرج المضطهدون وهم يعلمون سبب خروجهم .

وقالت أمُّ عبد الله بنت أبي حثمة لعمر بن الخطاب قبل إسلامه عندما قال : إنَّه الانطلاق يا أمُّ عبد الله ؟ قالت رضي الله عنها : نعم ، والله لنخرجنَّ في أرض من أرض الله ، إذ أذيتونا وقهرتونا حتَّى يجعل الله لنا فرجاً ^(٢) .

وقال جعفر بن أبي طالب للنبي ﷺ طالباً منه الفرار بدينه من الاضطهاد : « يا رسول الله ! ائذن لي أن آتي أرضاً أعبد الله فيها لا أخاف أحداً » ^(٣) ، وقال جعفر للنجاشي مبيناً سبب هجرة المسلمين إليه : « فلما قهرونا وظلمونا ، وشقُّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك عن سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيُّها الملك » ^(٤) .

هذا هو سبب الهجرة واضحاً جلياً ، من فم رسول الله ﷺ ، وفم من هاجر .

وإتماماً للحقيقة نقول ^(٥) :

-
- (١) الكامل في التَّاريخ : ٤٥/٢
 - (٢) حياة الصَّحابة : ٥٢٨/١ - ٥٢٩
 - (٣) حياة الصَّحابة : ٥١٥/١
 - (٤) حياة الصَّحابة : ٥٢٠/١
 - (٥) تاريخ الإسلام : ٨٧/١ ، انظر : الجلسة السَّابعة عشرة « قضية الهجرة إلى الحبشة » في كتاب : الإسلام في قفص الاتهام .

إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يفكر أن تكون الهجرة إلى إحدى القبائل العربيَّة ، لأنَّها كانت ترفض دعوته في مواسم الحجِّ إما مجاملة لقريش ، أو تمسُّكاً بدينها الوثني .

كما أنَّه ﷺ لم يفكر أن تكون الهجرة إلى موطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ، لأنَّ كلاً من الجاليتين اليهوديَّة والمسيحيَّة كانت تنازع الأخرى وتنافسها على النفوذ الأدبي ببلاد العرب ، فهما والحال هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً ، لاسيما إذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم : « ليس علينا في الأميين سبيل » .

أمَّا الين ، فقد كانت مستعمرة فارسيَّة ، ولم يكن الفرس يدينون بدين سماوي ، فلم يطمئن الرسول ﷺ إلى الالتجاء إليهم ، وقد برهنت الأيام على بُعد نظره عليه السَّلام ، فعداوة كسرى تجلَّت عندما كتب إلى باذان عامله في الين : « ابعث إلى هذا الرَّجل الَّذي بالحجاز رجُلَيْنِ جَلِيذَيْنِ من عندك ، فليأتياني به » ^(١) .

وكذلك كانت للحيرة محاذيرها ، حيث كان لقريش صلات وثيقة معها ، ومصالح متبادلة ، وزيارات في أوقات منتظمة ، فإذا علمت قريش بوجودهم فيها طلبتهم ، كما حاولت ذلك مع النَّجاشي ، الَّذي رفض تسليمهم لتساعجه وقوة خلقه .



« وكان على أبي لهب أن يحلَّ محل أخيه أبي طالب في حماية النَّبيِّ ، على الرَّغم من خصومته له ، وعلى الرَّغم من أنَّ النَّبيَّ لعنه في إحدى السُّور » ، ص ٤١

النَّبيُّ ﷺ لم يلعن أحداً ، وما ورد بحق أبي لهب إنَّما هو آيات قرآنيَّة تلاها

(١) الطُّبري : ٦٥٥/٢ ، الكامل في التاريخ : ١٤٥/٢

النبي ﷺ ، بعد أن نزل الوحي بها عليه ، وكانت بنزولها معجزة إلهية ، تؤكد سوء منقلب أبي لهب وزوجه في الآخرة ، ولو اعتنق أبو لهب ، أو زوجه ، الإسلام لما صح ما ورد بحقه فيها .

فسورة المسد : ﴿ قَبْتُ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبٍ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ، إعجاز إلهي غيبي ، لقد علّم سبحانه ، أن أبا لهب وزوجه لن يقولوا ، ولو نفاقاً بلسانهم : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، ومحمد ﷺ ، لو لم يكن القرآن الكريم وحياً ، ما علم ذلك ، ولا جعل نفسه ودينه في موقف حرج ، ينقض مضمون سورة من سوره !!



« وفي آذار سنة ٦٢٠ ، إبان موسم الحج التالي ، حاول محمد أن ينشر دعوته بين جماهير العرب المتدققين على مكة كالسيل ، من أطراف الجزيرة كلها ، وفيما هو منصرف إلى ذلك التقى أفراداً من قبيلة الخزرج المقيمة في المدينة^(١) ، وكان في المدينة جالية كبيرة من اليهود ، بينها وبين الوثنيين ضغائن متطاولة ، فكانت في أغلب الظن تتوعّد الوثنيين بقرب ظهور المسيح ، الذي سينتقم لها من مضطهديها ، ومن هنا ألفت المدنيون فكرة الرسول الإلهي ، فدخلوا في الإسلام ، لأنهم كانوا قبل كل شيء معّدين للأفكار الدينية ، بحكم الوضع في مدينتهم ، إعداداً يختلف كل الاختلاف عن إعداد المكّيين الآخذين بأسباب النعمة والثرف » ، ص ٤٢

(١) يستعمل بروكلمان كلمة « المدينة » بدلاً من كلمة « يثرب » قبل الهجرة ، وذلك من قبيل « مجاز الأول » ، ففي سورة يوسف ٣٦ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ ، أي يعصر عنباً سيؤول إلى خمر .

ثم قال بروكلمان عن بيعة العقبة الأولى : « فاجتمعوا بمحمد في العقبة ، وهي مجاز بين منى ومكة ، وهناك فرض عليهم أركان الإسلام ، ثم وجههم إلى المدينة مرة ثانية ، بعد أن أرسل معهم مقرأً يجيد تلاوة القرآن » ، ص ٤٤

رسول الله ﷺ لم يفرض الإسلام على أحد ، وإنما عرض على هذه الجماعة من أهل يثرب الإسلام ، فاقتنعوا بما عرضه عليهم ، وآمنوا به رسولاً ، وما السلطة التي كان يملكها ﷺ آنذاك ليفرض أركان الإسلام على الناس فرضاً ؟!

وعندما امتلك الإسلام سلطة ، وشكل دولة بعد الهجرة ، ما فرض الإسلام على أحد : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ ، [البقرة : ٢٥٦] ، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ ، [الكهف : ٢٩] ، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ، [النحل : ٨٢] .

والرواية التاريخية الصحيحة تقول^(١) :

لقد كان الخزرج في يثرب ، وكان يهود يثرب يقولون لهم إذا كان بينهم شيء : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أطل زمانه ، فنتبعه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وفي موسم الحج ، لقي ﷺ رهطاً من الخزرج عند العقبة^(٢) ، فقال لهم : أفلا تجلسون وأكلكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم ،

(١) ابن هشام : ٥٤/٢ ، الطبري : ٣٥٥/٢ ، الكامل في التاريخ : ٦٧/٢ ، عيون الأثر : ١٥٥/٢

(٢) العقبة : بين منى ومكة ، تبعد عن مكة نحو ميلين ، عندها اليوم مسجد ، ومنها تُرمى حجرة العقبة ، [معجم البلدان : ١٣٤/٤] .

تعلمون والله إنه للنبىُّ الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشَّرماء بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبتك إليه من هذا الدِّين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعزُّ منك^(١) .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين ، وقد آمنوا وصدَّقوا ، وأرسل ﷺ مصعب بن عمير^(٢) معهم معلِّماً ، يفقههم في الدِّين ، فلما قدموا يثرب ، ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ، ودعواهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور « الأنصار » إلا وفيها ذكر عن رسول الله ﷺ .

ورجع مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكَّة ، وخرج المسلمون معه إلى الموسم ، مع حجاج قومهم من أهل الشَّرك ، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة ، من أواسط أيام التشريق ، فلما فرغ الحجُّ ، قدموا إلى رسول الله ﷺ ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي ، فتكلَّم رسول الله ﷺ ، وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : « أبايكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ﷺ ، وقال : نعم ، والذي بعثك بالحق لنمنعنك ممَّا تمنع منه أزرنا^(٣) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أبناء الحروب ، وأهل

(١) سُمِّيَتْ بيعة العقبة الأولى « بيعة النساء » ، لوجود عفرات بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أوَّل امرأة بايعت .

(٢) أبو عبد الله مصعب بن عمير ، من السابقين إلى الإسلام ، شهد بدرًا وأُخذوا معه لواء رسول الله ﷺ ، استشهد بأحد وعمره أربعين سنة ، وفيه نزلت ، وفي أصحابه من المؤمنين : ٥٠ رجلاً صلَّوا ما عاهدوا الله عليه .. [الأحزاب : ٢٣] .

(٣) تكني العرب عن المرأة بالإزار ، وتكني أيضاً بالإزار عن النفس ، وتجعل الثوب عبارة عن لابس ، أي تمنع أزرنا يحتل الوجهين معاً .

الحلقة^(١) ، ورثناها كابراً عن كابر^(٢) .

فلما قدم الأوس والخزرج إلى يثرب ، أظهروا الإسلام بها ، وأصبح الجو مهيباً لهجرة الصحابة ، ولهجرة رسول الله ﷺ^(٣) .

هذه هي خلاصة الرواية التاريخية الصحيحة ، فأين : « وهناك قرص عليهم أركان الإسلام » ؟ كما يدعي بروكلمان !!



ثم أضيف إلى مساكن النبي فيما بعد خباء ذو أثاث فخم قد فرشت أرضه بالبسط ، لاستقبال وفود القبائل استقبالاً لائقاً ، ولقد ظل هذا الخباء ، طوال حياة النبي ، القناء الذي يجتمع فيه المؤمنون لأداء الصلوات اليومية ، ص ٤٥ .

تناقض يفضح الدس ، فكلمة خباء ، وجملة فرشت بالبسط لا تتناسب مع وضعه ، ذو أثاث فخم ، فإذا يقصد بالأثاث الفخم ؟

هل يقصد بروكلمان بذلك السجاد العجمي ، والفرش الوثيرة ، وثريرات « الكريستال » ؟ فأين هذا من كلمة البسط ، وليته شرح لنا ماأراده من جملة « الأثاث الفخم » ؟

وكتب السيرة ، والتي هي مصدرنا ومرجعنا في حياة رسول الله ﷺ ، وهذا أمر طبيعي ، فكل أمة تنهل أحداث تاريخها من مصادرها ، وهذا من حقها ، وخصوصاً إذا كانت هذه الأمة قد قدمت منهج البحث العلمي للعالم ، فكتب السيرة - الصادقة الموثوقة - رسمت صورة البساطة إلى أبعد حدودها ، في

(١) الحلقة : اسم لجملة السلاح والدروع ، [اللسان : حلق] .

(٢) لذلك سُميت بيعة العقبة الثانية : بيعة الحرب .

(٣) الهجرة حدث غير مجرى التاريخ ، ط ٣ ، ص ٤٧

داره ، وفي لباسه ، وفي مأكله .. ومن حقنا القول : إنها أصدق من بروكلمان ، وبروكلمان يعلم ذلك !!



« ولقد كان أهل الصُّفَّة هؤلاء ، يشكّلون حرسَ الرسول ، كما كانوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه بين أتباعه ومواطنيه الجدد » ص : ٤٥ .

يكتب بروكلمان متأثراً بالبيئات التي يعيش فيها ، أو يسمع عنها ، من الملوك والحكام الذين يختفون وراء حرسهم وحجّابهم ، ونسي بروكلمان أنّ على المؤرّخ أن ينتقل إلى الفترة التي يكتب عنها زماناً ومكاناً وبيئةً ومجتمعاً ونفسيةً وأخلاقاً ، ولو أنّه فعل ذلك عندما كتب عن عهد الرسول ﷺ ، لعرف أنّه لم يكن لدى محمد ﷺ حرس خاص يدور معه حيثما دار ، ويقف وينام على باب داره عندما يأوي إليها .

لقد كان كلُّ أهل الصُّفَّة حراساً ، ولكن للإسلام وسلامة انتشاره .

أمّا عبارة : « كما كانوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه بين أتباعه ومواطنيه الجدد » ، فهي عبارة تصوّر أهل الصُّفَّة ، على أنّهم أداة تسلّط ، وعلى من ؟ على المسلمين « أتباعه ومواطنيه الجدد » ، ودحض هذا الكلام ونقضه ، أسهل من سهل ، فبروكلمان لم يورد حادثة واحدة تؤيد افتراءه من ناحية ، وأحداث التاريخ تناقض ما ادّعى من ناحية ثانية .

إن أهل الصُّفَّة كما يقول ابن سعد في طبقاته الكبرى : « كان أهل الصُّفَّة ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ ، لا منازل لهم ، فكانوا ينامون على عهد رسول الله ﷺ في المسجد ، ويظلمون فيه ما لهم مأوى غيره ، فكان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه بالليل إذا تعشّى فيفرّقهم على أصحابه ، وتتعشى

طائفة منهم مع رسول الله ﷺ»^(١) ، وقال واثلة بن الأسقع : « رأيت ثلاثين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، يصلون خلف رسول الله ﷺ في الأزر^(٢) ، أنا منهم » .

فأهل الصُّفَّة هم فقراء المهاجرين ، كان مجموع عددهم - رضي الله عنهم - أربع مئة رجل ، يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة ، يسكنونه ويتعلمون القرآن ، وأهل الصُّفَّة هؤلاء ، صادرت قريش دورهم في مكة ، ونهبت محتوياتها وباعتها ، وهذا ظلم يضاف إلى ظلمهم في مكة قبل الهجرة .

لما سبق ، بدأ ﷺ حرباً اقتصادية ضد قريش ، بدأتها هي في شعب أبي طالب ، وخصَّ ﷺ قريشاً في حربه وليست قبيلة أخرى ، فالحرب معلنة بين المسلمين وقريش ، وقريش تعلم ذلك ، فهي التي أهدرت دم رسول الله ﷺ عند الهجرة ، فأوجدت بذلك ظروفاً حريئة ضد المسلمين المهاجرين ، فمن هؤلاء المهاجرين كانت السرايا الأولى خارج المدينة المنورة ، فعهد الأنصار حماية النبي ﷺ في المدينة المنورة ، لا خارجها ، أو ضواحيها .

هؤلاء هم أهل الصُّفَّة الذين لم يشكّلوا حرس الرسول .

والذين لم يكونوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه ﷺ بين أتباعه ومواطنيه الجدد كما يدّعي بروكلمان .

☆ ☆ ☆

« وأغلب الظن أنه كان يرجو ، عقب وصوله إلى المدينة ، أن يدخل اليهود

(١) طبقات ابن سعد : ٢٥٥/١

(٢) جمع إزار ، وفي الحديث : إزرّة المؤمن إلى نصف الساق ، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، [اللسان : أزر] .

في دينه ، وهكذا حاول أن يكسبهم من طريق تكييف شعائر الإسلام ، بحيث تتفق وشعائرهم في بعض النواحي » ، ص ٤٦ .

التاريخ الموثق لا يُكْتَب اعتماداً على الظنّ ، ولو قال بروكلمان : « أغلب الظنّ » ، لتقديم فكرة ، فكل ما فيها غير صحيح يقيناً ، إنّ شعائر الإسلام ، وكل ما يتعلّق بتشريعه - عبادات ومعاملات - إنّما كانت تستند إلى آيات يُوحى بها من الله تعالى إلى رسوله الكريم ، فلم يكن الرسول ﷺ يكيّف الشعائر ليكسب اليهود إلى دينه الجديد ، أمّا إذا وجد بروكلمان بعض التشابه بين اليهودية والإسلام ، فما ذلك إلاّ لكون اليهودية في أصولها ديانة سماوية اعتمدت التوحيد مبداً ، ولكنها حُرّفت بعد ذلك ، وكذلك شأن المسيحية معها ، فالقواسم المشتركة بين هذه الديانات السماوية من الأمور الطبيعية ، وليس ذلك من عمل أنبياء هذه الديانات ، بل من أصولها المشتركة ، وينابيعها الواحدة ^(١) .



« ولسنّا نعرف حتّى الآن ما إذا كان محمّد قد اقتبس هذه الفريضة الصّيام - عن إحدى الفرق الغنوسية ، أم عن الماتيين الذين نفذ مبشروهم إلى

(١) ويعلّق د. عر فروخ على ماسبق من كلام بروكلمان ، في هامش ص ٤٦/٤٧ ، بما يلي : [ولقد عالج ﷺ قضية اليهود بطرق مختلفة ، ولكنه لم « يبدّل شعائر الإسلام حتّى يرضى عنها اليهود » ، ويزعم المؤلف أنّ الرسول شرع صلاة الجمعة تشبّهاً باليهود ، مع أنّه بعد أسطر يقول بأنّه خالفهم في السّماح للمسلمين بالعمل قبل صلاة الجمعة (الظّهر) وبعدها ، إنّ فكرة « الجمعة » مخالفة تمام المخالفة لما عند النصارى واليهود معاً ، إنّها ظاهرة اجتماعية لادينية ، ولذلك لا تجوز صلاة الجمعة إلاّ في مصر (البلد) الذي يجتمع في مسجده أربعون رجلاً بالغاً ، وإلاّ لم تجب الجمعة في ذلك البلد ، بينما اليهود « يسبتون » منذ عشية السّبت إلى مساء السّبت لا يعملون عملاً . إنّ الرسول ﷺ قد علم أنّ التّوراة مبدّلة لأن فرق اليهود كانت مختلفة ، وأنّ السّامريين (اليهود الذي يسكنون اليوم في نابلس) يقولون إنّ لديهم توراة هي الصّحيحة ، بينما التّوراة الّتي يملكها سائر اليهود غير صحيحة ، ثمّ إنّ في العهد القديم أساطير كثيرة ، فإذا كان محمد ﷺ قد رفضها ، فإنّه قد فعل ذلك على أساس علمي ، و« رفض الخطأ ليس جهلاً »] .

بلاد العرب أيضاً ، فقد كان لا يعرف شيئاً ، أو يكاد ، عن الحرّانيين في العراق ،
الذين كانوا يصومون كذلك في شهر آذار ، تمجيذاً للقمر » ، ص : ٤٨ .

سببقى بروكلمان لا يعرف ، ولا يمكن له أن يعرف هو وأمثاله ماداموا في
أبحاثهم ودراساتهم غير موضوعيين ، ويندفعون في كتاباتهم بدافع الحقد والتعصب
ومجانبة الواقع والحقيقة .

وهل ينظر بروكلمان وأمثاله إلى أركان عقيدة دينهم يهودية كانت أو
مسيحية بمثل هذا المنظار ؟ وهل يحاول أن يجد مصادر التثليث أو التعميد أو
الخلاص والفداء .. التي كانت قبل المخلص يسوع ، عند أصحاب العقائد الوثنية
القديمة ؟ أم إنّ هذه النظرة لا تخطر له ببال إلا عند دراستهم للإسلام ونبئه .

هل كان الصّيام عند المسلمين بدعة لم تعرفها الديانات السماوية السابقة من
يهودية ومسيحية ؟

وهل عرفت شعوب أخرى أنواعاً مختلفة من الصّيام ؟

فإذا كان الأمر كذلك ، فهل نقول إنّ الصّيام عند المسيحيين بدعة وثنية ،
أو بدعة يهودية ؟ علماً بأنّ الصّيام بمعنى الامتناع عن شيء أو أشياء من الطّعام
والشراب والسّلوك ، هو أمر تشترك فيه كل الشعوب على اختلاف أديانها
وعقائدها ، ولكن لكل منها ما يختص به في صيامها ، والصّيام في الإسلام ولدى
المسلمين نوع يختلف كل الاختلاف عن بقية ألوان الصّيام الأخرى .

فهل يحتاج الأمر إلى أن نبحت عن مصدر يكون محمد ﷺ قد اقتبس هذه
الفريضة عنه ؟ وما دمنا عرفنا أنّها فريضة ، وأطلقنا عليها هذه التسمية ، فهي
إذن من الفروض التي فرضها الله عز وجل كغيرها من الفروض الأخرى كالصلاة
والزكاة والحج ..

☆ ☆ ☆

وعن بدر الكبرى قال بروكلمان : « وعددهم فيما تقول الروايات يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين ، واعتزم محمد أن يتربص لأبي سفيان في بدر ، وهو موضع على طريق القوافل ، ذوماء سائغ للشاربين ، وبدلاً من أن يجد حامية ضعيفة ، ألفى جيشاً قوياً كامل العدة ، يخرج للقاءه^(١) ..

وكان موقف النبي من اليهود أقسى وأعنف ، وكان على بني قينقاع ، وهم من الصّاعة ، أن يستشعروا ، قبل غيرهم ، قوّته وحزمه ، فلم يكذب ينقضى شهرٌ على معركة بدر ، حتّى وجّه محمد رجاله عليهم لقتلهم ، في الظاهر رجلاً مسلماً كان قد قتل يهودياً ، إثر خلاف جرى بينهما ، فساخطهم إلى الاستسلام » ، ص : ٥١/٥٠ .

اعتقد أن مؤرخاً عالماً ومنصفاً لا يتردد بدراسته لحادثة مهمة كحرب يهود بني قينقاع من قبل المسلمين أصحاب الدّين الجديد بهذه السّهولة والسّطحيّة ، وكان من أوّل واجباته أن يعود إلى دراسة طبيعة العلاقة بين اليهود والمسلمين ، وأن يلقي ضوءاً على مواقف اليهود من المسلمين ، وأن يكشف عن أعمال بني قينقاع تجاه المسلمين المخالفة للوثيقة « المعاهدة » الموقعة من الطرفين منذ استقرار محمد ﷺ في المدينة .

(١) ويتحدّث بروكلمان في ص ٤٩ عن « الرّغبة في الغنيّة عند فقراء المؤمنين - أهل الصّفة - الذين عرفوا طعم الفاقة الملحة » ، ثم تكلم عن سرّيّة باغتت قافلة لقريش فأصابت غنائم عظيمة عادت بها إلى المدينة (يتحدّث بروكلمان هنا عن سرّيّة عبد الله بن جحش) ، ولكن هذا النّقض للقانون الخلقي القبلي ، لم يلبث أن أثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها .
ويعلق د. فروخ في هامش الصفحة ذاتها قائلاً : لقد عرض لرسول الله ﷺ أن يقاتل في الأشهر الحُرّم على أساس واحد : « لا يجوز » أن يبدأ المسلمون القتال في الشهر الحرام . ، ولكن « يجب » أن يدافع المسلمون عن أنفسهم حتّى في الشّهر الحرام ، إن القرآن الكريم يذكر ذلك صراحة ، ولكن المؤلّف يجب أن يتهمك فقط ، ويعمل الأمور تعليلاً ناقصاً ..
فبهذه القتال في الشّهر الحرام إذن حرام . ، ولكن ردّ العدوان واجب .

أمّا إطلاق الأحكام ، كأن يقول : كان موقف النبي من اليهود أقسى وأعنف ، فذلك ليس من صفات المؤرخين العلماء المنصفين ، وهل يقبل من مؤرخ أن يجعل سبب إجلاء بني قينقاع عن مساكنهم قتلهم لرجل مسلم ؟ ألا نجد لكل حادث تاريخي سبباً مباشراً ، وأسباباً حقيقية غير مباشرة ؟ لكنه التعصّب والحقد ، ينحرفان بالإنسان حتّى ولو كان عالماً عن جادة الحق ، وعن الموضوعيّة في بحثه ودراسته !!

والحقيقة التاريخية التي يعلمها بروكلمان ، تقول :

قال ﷺ : « هذه عير قریش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلکوها »^(١) ، وأبو سفيان يعلم علم اليقين ، أن هناك حرباً معلنة بين المسلمين وقریش ، لذلك حين دنا من الحجاز تحسّس الأخبار^(٢) ، وسأل من لقي من الرّكبان تجوّفاً على عير قریش ، حتّى أصاب خبراً من بعض الرّكبان : إن محمّداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك ، واستأجر ضمّضم بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى مكّة ، وأمره أن يأتي قریشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمّداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمّضم إلى مكّة مسرعاً^(٣) .

فرسول الله ﷺ لم يتربّص لأبي سفيان ، بل أراد قطع الشريان الاقتصادي لقریش التي بدأته بالعداوة والحرب .

وسبب إجلاء بني قينقاع بعد بدر الكبرى ، يعود إلى ما يلي^(٤) :

(١) ابن هشام : ١٨٢/٢ ، السيرة الحلبية : ١٥٣/١ ، ابن سعد : ١٢/٢ ، البداية والنهاية : ٢٥٦/٣ ، الطبري : ٤٢٧/٢

(٢) تحسّس بالخاء أن تتسمع الأخبار بنفسك ، والتّجسس هو أن تفحص عنها بغيرك ، في الحديث الشريف : « لا تجسسوا ولا تحسسوا » .

(٣) ابن هشام : ١٨٢/٢ ، الاكتفاء : ٨٧/١

(٤) الاكتفاء : ٩٩/١ ، الطبري : ٤٨١/٢ ، البداية والنهاية : ٣/٤

لما جاء البشيران - زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة - إلى المدينة بفتح الله عز وجل ، وقتل من قُتل من المشركين ، قال كعب بن الأشرف اليهودي : ويلكم أحق هذا ، أترون أن محمداً قتل الذين يسمي هذان الرجلان ، وهؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير لنا من ظهرها ، ولما تيقن الخبر ، خرج حتى قدم مكة ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ ، وينشد الأشعار ، ويبكي على قتلى بدر من قريش ، ثم رجع كعب إلى المدينة فشَبَّ بأُم الفضل بنت الحارث ^(١) ..

وتنادى اليهود بعدها ، لما قدمت امرأة مسلمة بحلية تريد بيعها بسوق بني قينقاع ، فجلست إلى صائغ منهم ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ففقدته إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحك الصائغ ومن عنده ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، ووثبت اليهود على المسلم فقتلوه .

وقال اليهود بعد بدر : « لم يلقَ محمد من يحسن القتال ، ولو لقينا لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد ، يا محمد ، إنك ترى أنا كقومك ؟ ! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس » .

إنها عداوة بدأها اليهود منذ وصول رسول الله ﷺ والمهاجرين إلى المدينة المنورة ، وكانت بغياً وحسداً ، على الرغم من أنه ﷺ وادعهم وعاهدهم ، إنها حرب ، حاول ﷺ دفعها بشتى الصور ، وعلى الرغم من وقوعها ، فقد كانت رداً على تطاول وتحذ وتخرىض منهم .

فأين الحقيقة من قول بروكلمان : « فلم يكذب ينقضي شهرٌ على معركة بدر ،

(١) انظر الأنبياء في الطبري : ٤٨٨/٢ ، والتي مطلعها :

أَرَايِلَ أَنْتَ لَمْ تَحْلُسْ بِمَنْقَبَةٍ وَتَارَكَ أَنْتَ أُمَ الْفَضْلِ بِالْحَرَمِ !

حتَّى وجَّهَ مُحَمَّدٌ رِجَالَهُ عَلَيْهِمْ لِقَتْلِهِمْ فِي الظَّاهِرِ رِجَالًا مُسْلِمًا ، كَانَ قَدْ قَتَلَ يَهُودِيًّا
إِثْرَ خِلَافٍ جَرَى بَيْنَهُمَا ، فَاضْطَرَّهُمْ إِلَى الْإِسْتِسْلَامِ « ؟!؟

☆ ☆ ☆

يَقُولُ بَرُوكْلَمَانُ : أَحَدٌ عَلَى مَا تَقُولُ الرِّوَايَاتُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ رَجُلًا ، ثُمَّ يَقُولُ
عَنِ الْمُنَافِقِينَ :

« وَلَكِنْ هُمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ مَا لَبِثَتْ أَنْ اعْتَوَرَهَا الضَّعْفُ أَمَامَ هَذَا الْجَيْشِ
الْقَوِي » ، ص : ٥١ .

مِنْ أَيِّ الْمَصَادِرِ أَوِ الرِّوَايَاتِ تَوَصَّلَ الْمُؤَرِّخُ بَرُوكْلَمَانُ أَنَّ هُمَّةَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ
اعْتَوَرَهَا الضَّعْفُ أَمَامَ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ الْقَوِي ؟ هَلْ كَانَ ذَلِكَ فِي بَدَايَةِ الْمَعْرَكَةِ مَعَ
الْعِلْمِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَرَجُوا إِلَى لِقَاءِ أَعْدَائِهِمْ وَلَمْ يَقْبِعُوا فِي دِيَارِهِمْ ، وَالْخُرُوجُ دَلِيلُ
هُمَّةٍ وَلَيْسَ الْعَكْسُ ؟ أَمْ هَلْ كُلُّ ذَلِكَ بَعْدَ بَدَايَةِ انْتِصَارِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالانْتِشَالُ بِجَمْعِ
الْغَنَائِمِ ، وَعَمَلِيَّةُ التَّنَافُفِ الْفَرَسَانِ بِقِيَادَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ بَعْدَ نَزُولِ رِمَاةِ الْمُسْلِمِينَ
مِنْ قِمَّةِ الْجَبَلِ ، فَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَحْدُثَ ارْتِبَاكٌ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَيْسَ
ضَعْفًا فِي هُمَّتِهِمْ ، فَقَدْ بَقِيَتْ هُمَّتُهُمْ هُمَّةُ أَبْطَالٍ يَطْلُبُونَ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُمْ
يَصْدُونُ الْأَذَى عَنْ قَائِدِهِمْ وَرَسُولِهِمْ ﷺ .

الضَّعْفُ لَمْ يَعْتَوِرْهُمْ مِنْ وَقُوفِهِمْ قَبَالَةَ جَيْشٍ قَوِيٍّ ، تَغْيِيرُ الْمَوْقِفِ فِي أَحَدٍ جَاءَ
مِنْ الْقَاعِدَةِ الْقَائِلَةِ : « عِنْدَ فَقْدِ الْمِبَادَةِ يَسْتَحِيلُ تَحْقِيقُ النَّصْرِ » ، فَبَعْدَ النَّصْرِ
وَهَزِيمَةِ قَرِيْشٍ وَتَنْكِيسِ لَوَائِهَا ، فَارَقَ الرُّمَاءُ مَكَانَهُمْ قَائِلِينَ : انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ ، فَمَا
مَقَامُنَا هُنَا ، وَكَانَ التَّنَافُفُ خَالِدٌ بَعْدَهَا ، فَلَحْظَةٌ وَاحِدَةٌ يُمْكِنُهَا أَنْ تَحْدُدَ مَصِيرَ
الْمَعْرَكَةِ .

وَكَانَتْ غَزْوَةُ حِمْرَاءِ الْأَسَدِ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ١٦ شَوَّالِ ٣ هـ ، أَيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي

تلا تاريخ معركة أحد مباشرة^(١) ، أكبر دليل على حفظ معنويات جنود المسلمين مرتفعة عالية .



« وكان على محمد أن يعوّض هذه الخسارة التي أصابت مجده العسكري من طريق آخر ، ففكر في القضاء على اليهود ، فهاجم بني النضير لسبب واهٍ ، وحاصرهم في حيّهم .. » ص : ٥٢ .

لم يكن محمد ﷺ يبحث عن مجد عسكري ، لأنه لم يكن قائداً عسكرياً بالمعنى الذي يعرفه الناس في القادة العسكريين ، لأنه كان قبل كل شيء نبياً رسولاً ، يأتمر بأمر ربه ، وينفذ ما يوحى به إليه ، فالمجد عنده حين تعلو كلمة الله ، وينتصر شرعه ، فالربح والخسارة في ميزانه تختلف عنها في موازين الآخرين .

وما رآه بروكلمان سبباً واهياً في مهاجمة محمد ﷺ ليهود بني النضير ، لم يكن كذلك ، وهذا السبب هو السبب المباشر ، والبحث العلمي الموضوعي يقتضي من المؤلف الباحث أن يعود إلى دراسة علاقات اليهود بالإسلام ورسوله ، ومواقفهم منه ليتعرف على الأسباب الحقيقية وغير المباشرة لمحاربة بني النضير ، وما كانوا يشكلون من خطر على المسلمين ، وعلى قاعدة الإسلام الوحيدة ، وهي المدينة المنورة ، خصوصاً بعد أعمالهم التي فيها نقض صريح للمعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين ورسولهم ﷺ .

أمّا غزوة بني النضير ، فسببها كما تذكر كتب التاريخ الموثوقة^(٢) ، والتي لا يجهلها بروكلمان ما يلي :

-
- (١) كانت أحد السبت ١٥ شوال ٣ هـ .
(٢) الاكتفاء : ١١١/١ ، السيرة النبوية لابن كثير : ١٠٨/٣ ، الطبري : ٥٥٠/٢ ، عيون الأثر : ٤٨/٢ ، ابن هشام : ١٠٨/٣ ، الكامل في التاريخ : ١١٩/٢ ، البداية والنهاية : ٧٤/٤

خرج ﷺ إلى بني النضير ، وهم قوم من اليهود بالمدينة ، يستعينهم في دية للجوار الذي كان رسول الله ﷺ قد عقده معهم ، والذي نصّ على أن يعاونوه في الديات ، وكان مع رسول الله ﷺ نفر من أصحابه ^(١) ، فقالوا له : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا ، وأن تأتينا ، ولكن حتى تُطعم وترجع بحاجتك ، وكان ﷺ جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض ، وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ، فمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، وقال اليهود عندما رأوا قلة أصحابه ﷺ : نقتله ، ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة فنبيعهم من قريش ، ساعدهم في موقفهم هذا نتائج غزوة أُحُد العسكرية ، والتي جاءت لصالح قريش ، ووعود المنافقين بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول ، وأملهم بإمدادهم من قبل بني قريظة وحلفائهم من غطفان ..

فأين هذه الحقائق من قول بروكلمان : « فهاجم بني النضير لسبب واهٍ » ؟ .

لقد طرح الإسلام في لحظاته الأولى في المدينة المنورة مبدأ عاماً ثابتاً على مرّ الزمن ، ألا وهو المؤاخاة والتسامح والعيش معاً مع الأديان الأخرى ، مع الاحترام الكامل لعقائدها ، ولم يجعل ذلك شعاراً مرفوعاً ، بل منهجاً أثبتته الوقائع والأعمال .

الإسلام دين قوي ومتسامح معاً ، ولكنه ما جعل التسامح موقفاً مهتزاً يتلقّى بسببه الضربات والمؤامرات من قريش واليهود ، بل جعل للتسامح قوّة تحميه . فأمام عدوان بني النضير وتآمرهم ، أخرجوا من المدينة المنورة ، فالرحمة هنا لا محلّ لها في موقفين متباينين ، تناقضت فيهما التّصورات ، طرف متسامح

(١) كانوا دون العشرة ، السيرة الحلبية ٢/٢٧٧

يطرح المحبة والتعاون والتعايش بأمان ، وطرف حاقد ماكر ناكث للعهد ، ينفذ التآمر والقتل .

إنَّ تصرفات اليهود سيطرت عليها روح الحفاظ على الامتيازات التي تمتعوا بها ، عندما كان العرب فِرَقاً وقبائل متنافسة ، ولكن هيهات أن تنجح هذه الروح في ظل الإسلام ، فما كان من عند الله يُمِضُهُ^(١) .

فهل هاجم رسول الله ﷺ بني النضير لسببٍ وإيه ؟

بروكلمان نفسه لا يعتقد ذلك ، ولكن الحقد والصليبية أنطقته به !!

والقوانين الدولية - قديمها وحديثها - تجيز المعاملة بالمثل ، المعاملة بالمثل مبدأ مقرر في القانون الدولي ، وهذا المبدأ مقيد في الإسلام بالفضيلة ، وبروكلمان يعلم ذلك ، وفي العاقبة الغادر خاسر دوماً ، والناكث للعهد خاسر ، وبنو قريظة هم الذين بدؤوا العداء والإفناء واستئصال المسلمين بما لأتهم الأحزاب ، فكانت صفقة خاسرة ، لأنهم نبذوا عهودهم في أشد ساعات الحرج والشدة .

وعندما حاصر ﷺ اليهود ، من الملاحظ أنهم لم يسألوه : لماذا هذا الحصار ؟! أو لماذا هذه الحرب ؟! وبالتالي لماذا هذا القصاص ، وهذا العقاب ؟! والجواب على هذا السؤال في عبارة واحدة موجزة قصيرة : « إنهم أدرى بما صنعوا » .

وبعد هذا كله ، هل كان سلوك بني قريظة غامضاً ؟ أقسم أنه ليس غامضاً حتى في ذهن بروكلمان ، ولكنسه التعصب ، أو الخبث ، أو الطعن بأمتنا وتاريخنا .. أو كلها معاً ، فبروكلمان لا يجهل الوثائق التي تثبت نكثهم لعهدهم ،

(١) (الخندق) من سلسلة غزوات الرسول الأعظم ، ص : ٢٤/٢٥

وتأمرهم ضد الإسلام ونبي الإسلام والمسلمين !!

☆ ☆ ☆

« وفي نؤار من سنة ٦٢٨ حاول النبي أن يعوِّض من فشله الظاهري في الحديبية^(١) ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خيبر » ،
ص : ٥٦ .

أولاً : أين الدليل على أن النبي ﷺ فشل في الحديبية ؟

في الحديبية ، جعل رسول الله ﷺ أمام ناظريه هدفاً واضحاً يريد تحقيقه ، ألا وهو إيقاف الحرب ، وحقن الدماء للتفرغ للدعوة ، وتبليغ الإسلام ، ونشر التوحيد بين القبائل بالحكمة والموعظة الحسنة ، مع الاعتراف الرسمي الخطي من قريش بهذا الحق .

فالهدنة مع قريش ستفسح المجال لتحقيق هذا الهدف داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وجاءت الوقائع مؤيدة ، والنتائج محققة صحة وجهة نظره ﷺ ، والأثر كبير حتى على قريش ذاتها ، لأنه ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء ، مما جعل أفراداً كثيراً من أبنائها يعيدون حساباتهم ، كخالد بن الوليد ، وعمر بن العاص .

قال الزهري^(٢) في صلح الحديبية : « فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنها كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ،

(١) وذكر بروكلمان في ص ٦٨ أيضاً : « إخفاؤه - ﷺ - في صلح الحديبية » .

(٢) محمد بن سعد بن منيع الزهري : [١٦٨ - ٢٣٠ هـ / ٧٨٤ - ٨٤٥ م] ، مؤرخ ثقة ، قال الخطيب في تاريخ بغداد : محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة ، وحديثه يدل على صدقه ، فيأنه يتحرى في كثير من رواياته ، أشهر كتبه : الطبقات الكبرى ، [الأعلام : ٦٧] .

وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلِّمْ أَحَدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه ، ولقد دخل تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»^(١) .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألفٍ وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله ، ثمّ خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

فصلح الحديبية اعتراف رسمي موقع من قريش ، بأنّ رسول الله ﷺ ومن معه قوة مستقلة متميزة ، وصنو قريش زعيمة القبائل ، وهذا يعني أيضاً أمام كلّ قوى جزيرة العرب ، أن قريشاً قد اعترفت رسمياً بمن كانت تريد استئصاله ، مما جعل القبائل العربيّة تعيد حساباتها ، لقد أيقن العرب جميعاً - من أسلم ومن لم يُسلم بعد - أنّ قوة جديدة ، بفكر جديد ، وتنظيم اجتماعي جديد ، ورابطة جديدة خلّفت وراءها العصبيّة القبليّة ، قد أثبتت وجودها في جزيرة العرب ، ويتحتمّ على كلّ العرب التفكير جدّياً بها كأمر واقع من ناحية ، وكفكر منطقي سليم من ناحية ثانية .

كأمر واقع أثبت وجوده ، وبالتالي لقد غير ميزان القوى لصالحه بعد الحديبية .

وكفكر منطقي سليم سقّه الأصنام والأوثان والشّرك .. وانتهج التوحيد المطلق لله عز وجل .

لقد أثمر صلح الحديبية بأسرع مما كان يتوقّع ، وبأعجب مما كان يتصوّره إنسان ، لقد أزاح قريشاً - العقبة الكأداء في طريق الإسلام منذ ظهوره - من

(١) وهذا القول أيضاً في : الاكتفاء : ١٢٩/١ ، ابن هشام : ٢٠٦/٣ ، البداية والنهاية : ١٧٠/٤ ، الطبري : ٧٩/٣

طريق الدّعوة ، وسيحطّم عنادها وجحودها مما سيجعلها تفكّر بجل يحفظ لها ماء وجهها ، فأَيُّ فشل ، وقد دخل في الإسلام في سنتين من صلح الحديبية ما دخل فيه قبلاً ؟ !.

ثانياً : ما سبق كان عن « الفشل الظاهري في الحديبية » الذي ادّعاء بروكلمان ، والذي جعل غزوة خيبر تعويضاً ، « فقّاد المسلمين في حملة على المستعمرة الغنيّة اليهوديّة في خيبر » .

وهذا الرأي ، يدل بشكل قاطع على تحييز بروكلمان إلى اليهود ، مع بعده عن الموضوعيّة والبحث العلمي المجرّد من التّعصّب والهوى ، أتراه لا يعلم أن يهود خيبر قد ذهبوا إلى قريش يحرضونها على النّبئ والمسلمين ؟ أما قالوا لقريش : إننا سنكون معكم عليه حتّى نستأصله^(١) ؟ .

عجيب ، غريب .. أتراه لا يعلم أن وفد اليهود برئاسة حيي بن أخطب جعل لغطفان تحريضاً على الخروج لقتال المسلمين ، نصف تمر خيبر كل عام ؟ .

نعجب لهذا الأسلوب في قراءة تاريخنا العربي الإسلامي وكتابه ، فتاريخهم الأوروبي الكنسي يقرؤونه ويكتبونه غير هذه القراءة والكتابة المخصّصة لنا !! .

إن قرّر التاريخ أن تحالفاً يهودياً برئاسة خيبر ، ضمّ يهود تيماء وفدّك ووادي القرى مع غطفان ، تحت زعامة سلام بن مشكم ، هدفه غزو المدينة واستئصال الإسلام وأهله ، أصمّ بروكلمان ومن على شاكلته أذانهم .

« الاعتداء أمر ممقوت لا الحرب ، وليست كل حرب اعتداء » ، إن حبّ القتل للقتل ذاته خلّق رفضه الإسلام ، حارب سفك الدّماء ، وجعله غريزة

(١) الاكتفاء : ١١٣/١ ، عيون الأثر : ٥٥/٢ ، ابن خلدون : ٢٩/٢ ، البداية والنهاية : ٩٢/٤ ، ابن هشام : ١٢٧/٣ ، الرّوض الأنف : ٢٧٦/٣ ، الطبري : ٥٦٤/٢ ، السيرة النبويّة لابن كثير :

مزجورة ، ولكنها ليست مباداة لحاجتها في أوقات مناسبة ، أولاها الدِّفاع عن النفس في الحرب الوقائيَّة .

الإقلاع عن الحروب أمر حسن لا شك فيه ، ولكن هل الذلَّة وقبول التَّأمر والاعتداء أمر حسن ؟ .

فلو عاش اليهود في خيبر ، واحترموا حقوق المسلمين ، وأزالوا من نفوسهم التَّأمر والاعتداء والتَّعالي ، فلا حرب ، أمّا أن يقبل المسلمون الظلم والتَّأمر والجور بحجَّة أن الحرب أمر ممقوت فلا ، خصوصاً وأن موقف الإسلام من الدِّينين السماويين معروف جلي ، وواضح ثابت ، لا يخفى على بروكلمان ، فتسامح الإسلام معروف ، وسعة صدره حقيقة واقعة .



« والواقع أن تحريم الخمر كان يهدف إلى تقييد الشعراء الذين كانوا كثيراً ما يتغنون بمجالسهم الخمرية المعريَّة » ، ص ٥٣ .

كيف يجيز كاتب أو مؤرِّخ لنفسه أن يقرِّر أسباباً كما يحلّو له ؟ وخصوصاً في أمور دينيَّة لم يتركها المشرِّع لبروكلمان أو لغيره ، ليشرح أسبابها ، ويقرر واقعها ، بل وردت حولها آيات كريمة ، وأحاديث نبويَّة توضِّح وتقرِّر وتبيِّن ، وهل انتظر المسلمون إلى أن جاء بروكلمان ليبين لهم الواقع في تحريم الخمر ؟ .

ومن قال له إن تحريم الخمر كان الهدف منه تقييد الشعراء وعريَّة الخمورين منهم ؟

ومن الجدير بالملاحظة ، أن آيات تحريم الخمر لم تأت مرتبطة بالشعراء ومجالسهم .

ونتساءل : هل يفعل بروكلمان ذلك يا ترى حين يكتب - إذا كتب - عن

كارل بروكلمان (٥)

اليهودية والمسيحية وما حُرِّمَ فيها ؟ أم يحترم نصوصهما ؟ أم أن التَّحْرِيفَ والدُّسَّ لا يجوز عنده إلا إذا كان موضوع الدِّراسة يدور حول الإسلام وشريعته !!؟

☆ ☆ ☆

وبعد أن تكلم بروكلمان عن غزوة الأحزاب « غزوة الخندق »^(١) دون أن يذكر دور اليهود التَّأمري فيها ، يقول :

« وفي اليوم نفسه هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضاً » ،
ص : ٥٤ .

فلماذا أغفل بروكلمان الكلام عن دور اليهود عند كتابته عن غزوة الأحزاب ؟ علماً بأنَّ لليهود دوراً كبيراً ورئيسياً في تحريض المشركين والتَّجميع لغزو المسلمين في المدينة المنورة ، ثم كان لهم دور آخر في التَّأمر على المسلمين خلال حصار المدينة ومن داخلها ، ممَّا شكَّل خطراً كبيراً على المسلمين لو نجحت مؤامرتهم . فهل يجوز لباحث موضوعي ، وفي دراسة تاريخية علمية ، أن يغض الطرف وأن يتجاهل دور اليهود عند بحثه ودراسته لموضوع غزوة الأحزاب ؟

ومن ثَمَّ ، لماذا اعتبر بروكلمان سلوك يهود بني قريظة غامضاً ، علماً بأنَّ جميع الروايات تُجمِعُ على الموقف المعادي للإسلام ورسوله منذ بداية الدَّعوة ؟ وتجلَّت مواقفهم المعادية بحوادث كثيرة ، وكان أخطرها تأمر بني قريظة على المسلمين أثناء حصار المدينة في غزوة الأحزاب ، ولو تحقق لهم ما أرادوا في مؤامرتهم ، لَمَّ القضاء على الإسلام وأهله نهائياً .

ولم يقم رسول الله ﷺ بأي إجراء ضدهم إلا بعد أن تأكَّد من نقضهم للعهد معه ، وهنا نسأل بروكلمان ومن على شاكلته : ماذا تفعل الدُّول الحديثة اليوم

(١) غزوة الأحزاب في سؤال ٥ هـ .

حين تكتشف مؤامرة داخلية تهدد مصير الدولة ووجودها ؟ ألا يكون السحق والإبادة والموت جزاء القائمين بها ؟ .

غزوه بني قريظة قصاص عادل لخيانة عليّة ، مع نقض معاهدة موقعة تعهّدوا بموجبها دعم المسلمين إذا داهمهم عدو : « وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصّحيفة^(١) ... » ، فأنحازوا إلى جانب العدو ، ومتى ؟ عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة ، فظنوا أن الأمر قد انتهى ، واستؤصل المسلمون عن آخرهم .

هذا ، بعد صلح الحديبية ، ومهادنة قريش ، كان لا بدّ من توحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام ، ومن الصّعب تحقيق ذلك ، والخطر ما زال جاثماً في شمالي المدينة تترأسه خيبر للقضاء على الإسلام والمسلمين .

ويمكننا أن نجمل أسباب غزوة خيبر بما يلي :

- ١ - العداوة المستمرة التي أعلنها حييّ بن أخطب ، وتبناها قائد يهود خيبر سلام بن مشكم .
- ٢ - رجوع النّبي ﷺ من الحديبية دون عمرة ، فظن اليهود أن ضعفاً حلّ بالمسلمين .
- ٣ - اتّصال اليهود بغطفان يحرضونهم على المسلمين ، مقابل نصف ثمار خيبر وتمرها .

- ٤ - الحلف المعقود برئاسة خيبر ، والذي أراد مداومة المدينة .
- ٥ - تحريض اليهود لقريش ، وسفرهم إلى مكّة ليقولوا لزعماء قريش : إنّنا سنكون معكم عليه حتّى نستأصله ، فقال لهم أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحبّ الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد .

(١) ابن هشام : ١٠٧/٢

ولن ينتظر رسول الله ﷺ والمسلمون حتى يفاجئهم اليهود (بزعامه خيبر) في المدينة ، وعلى ذلك ، كان هدف غزوة خيبر : القضاء على تأمر اليهود وحلفهم المبرم ضد المسلمين ، وإنهاء تأليبهم القبائل ضد رسول الله ﷺ^(١) .

وبعد ، ما أثبتته بروكلمان أهو الجهل بحقائق التاريخ ، أم المعرفة بها والدس عن علم ومعرفة ؟ الأخيرة أرجح وأثبت على بروكلمان وأمثاله !!



« وعندما بلغ محمد الكعبة طاف بها سبعة على راحلته ، لامساً الحجر الأسود بعصاه في كل مرة ، وبذلك ضم هذا الطّقس الوثني إلى دينه .. » ، ص : ٦١ ، وفي ص : ٧٦ يقول : « ولعل هذا الحجر أقدم الأوثان التي عرفتها مكة قبل الإسلام ، وهو يشبه الحجاره المقدسة الأخرى التي كثيراً ما نجد لها عند السّاميين .. » .

كنا نتمنى لو أن كاتباً كبيراً ، ومؤلفاً في التاريخ مثل بروكلمان يكلف نفسه مشقة الرجوع إلى المصادر الرئيسيّة ، وخصوصاً وهو يتقن العربية ، وكتابته حول أمور خطيرة تتعلق بعقيدة يعتنقها مليار إنسان من سكان الكرة الأرضيّة . ليس غريباً أن يجهل أوربي المعاني المتعلّقة بالحجر الأسود وأصله ، وموقف الإسلام والمسلمين ورسولهم منه ، لكن الغريب أن يتصدّى للكتابة حول هذا الموضوع إنسان له صفة علميّة ، ثمّ يكتب جهلاً فاضحاً ، ودساً رخيصاً .

لقد تكلمنا عن الحجر الأسود في صفحات سبقت ، ونضيف : إن الصّبيّة الصّغار في عالم المسلمين يعرفون بما لا يقبل الشك أن الإسلام جاء حرباً على الوثنيّة بجميع أشكالها وألوانها وصورها ، والحجر الأسود ليس وثناً ، ولا صنماً ،

(١) غزوة خيبر « من سلسلة غزوات الرّسول الأعظم » ، ص ٣٢/٣٢

ولا يعبداه المسلمون ، وإنَّما له صفة من الاحترام والتَّقدِّيس ، لأنَّه يحمل ذكرى عقيدة التَّوحيد منذ بُنيت الكعبة في عهد إبراهيم وإسماعيل ، فكيف يجوز بروكلمان لنفسه أن يقول : وبذلك ضمَّ هذا الطَّقس الوثني إلى دينه ؟



وعن تبوك يقول بروكلمان : « ولسنا نعرف على اليقين ما الَّذي دعاه إلى انتهاج هذه السَّبيل في ذلك الوقت بالذَّات ، فقد يكون قصد إلى أن يشغل أتباعه المدينيِّين الَّذين كانوا لا يزالون في حال من عدم الارتياح بعد توزيع غنائم حنين .. حتَّى إذا بلغ تبوك ، وهي واحة تزهو بما ينبت فيها من حنطة ونخيل قرب الحدود البيزنطيَّة ، توقَّف بعد أن نال منه الجهد ، واستشعر وطأة السَّن العالية » ، ص : ٦٥ .

« لسنا نعرف » .. ما الَّذي دعاه إلى انتهاج هذا السَّبيل ؟ نستغرب أن يعتمد مؤرِّخ أو عالم أو كاتب يحترم نفسه إلى تجاهل ما يرد في المصادر والمراجع حول حادثة معيَّنة ، وأن يلجأ بدلاً من ذلك إلى التَّخمين والظَّن والاحتال ، وأن يقول : « قد يكون قصد إلى أن يشغل أتباعه المدينيِّين الَّذين كانوا لا يزالون في حال من عدم الارتياح بعد توزيع غنائم حنين .. » ، أيكون الارتياح أشد ، والحالة أفضل حين يغزوهم في فصل القيظ ، والحر لا يطاق ، والمهدف من الغزو دولة الرُّوم ومن يحالفها من قبائل غسان ؟

أيكون الأمر من السُّهولة والبساطة إلى هذه الدَّرَجَة في تفكير رجل يقود شعباً ، ويحمل مسؤوليَّة ، ويؤسس دولة ، فيغامر مغامرة خطيرة من أجل عدم ارتياح أتباعه بشأن توزيع الغنائم ؟ مع أنَّهم بكوا خشوعاً وإيماناً حتَّى أخضَلُوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ربّاً ، ورسوله قسماً ، رضينا برسول الله قسماً وحظاً ، ونال الأنصار وساماً خالداً على مرِّ الزَّمن ، عندما قال ﷺ : « اللَّهُمَّ أَنْتُمْ أَحَبُّ

النَّاسَ إِلَيَّ ، الأنصار حُبُّهم إيمان ، وبغضهم نفاق ، اللَّهُم اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار ، ولأبناء أبناء الأنصار ، ولنساء الأنصار ، ولنساء أبناء الأنصار^(١) .

أليس الأجدر بالباحث والعالم أن يوسّع دائرة البحث ، ليصل إلى الأسباب المختلفة لكل حادثة من حوادث التاريخ ؟ ويحسن به أن يكون دقيقاً في تعابيره ، فلو قال : قرب حدود بلاد الشام ، كان أقرب إلى الصّحة والدقّة من قوله : قرب الحدود البيزنطية ، ففي بلاد الشام إمارة عربية تحت النفوذ البيزنطي هي إمارة الغساسنة .

وهل رأى بروكلمان رواية واحدة تعيد أسباب التّوقّف والانسحاب إلى مانال منه من الجهد ، ووطأة السّن العالية ؟



« مرض النّبي بداء الملاريسا - على الأرجح - وكان من أمراض المدينة المألوفة ، وعلى الرّغم من أن سِنِّيّه لم تكن قد تجاوزت السّتين - على الأكثر - فقد تطرّق الضّعف إلى نشاطه بسبب من المصاعب الّتي حفلت بها سنواته الأخيرة ، وبسبب من الحياة الزوجيّة الواسعة الّتي عاشها » ، ص : ٦٧ .

أهو الجهل أم الدّس الرّخيص المكشوف ، والتّجاهل لحقيقة الموضوع المتعلّق بحياة الرّسول ﷺ ؟

ولما كان هذا الكلام صادراً عن كارل بروكلمان ، فإنّنا نستبعد الجهل !! وليته قرّر أن يكون موضوعياً نزيهاً ينشد الحقيقة ، ولو فعل ذلك لأدرك أن

(١) انظر : الطبري : ٩٤/٣ ، ابن خلدون : ٤٨/٢ ، البداية والنهاية : ٢٥٧/٤ ، عيون الأثر : ١٩٤/٢ ، السيرة النبويّة لابن كثير : ٦٧٥/٣ ، ابن هشام : ١٠٦/٤ ، الكامل في التّاريخ : ١٨٤/٢ ، السيرة الحلبيّة : ١٤١/٣ ، الرّوض الأثف : ١٦٩/٤ ...

ما يفكر به ، أو يقصد ويرمي إليه - هو وأمثاله - أبعد ما يكون في حياة رسول الله ﷺ .

لقد عاش ﷺ ثلاثاً وستين سنة ، وهذا المتوسط الطبيعي للأعمار آنذاك ، وحتى في أيامنا هذه ، أما عبارة « الحياة الزوجية » ، فتعبر بعيد عن التاريخ والعلم ، وهو تكهن لا يمكن الوصول إلى حقيقته ، أضف إلى ذلك أن الرسول مرض في آخر حياته ، بما لا صلة له بما يذهب إليه بروكلمان ، وهذه هي الحقيقة التاريخية^(١) :

بعد فتح خيبر^(٢) ، جعلت زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم تسأل : أي الشاة أحب إلى محمد ؟ فيقولون : الذراع ، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وسلختها وطبختها ، ثم عمدت إلى سم لا يلبث أن يقتل من ساعته ، فسَمَّت الشاة^(٣) ، وأكثرت في الذراعين والكتف ، فلما غابت الشمس ، صلى رسول الله ﷺ المغرب بالناس ، فقدمت له الشاة ، فسألها ﷺ عن السبب ، فأجابت : يا أبا القاسم ، هدية أهديتها لك ، فأمر بها ﷺ فوضعت بين يديه ، وبعض أصحابه حضور ، وفيهم بشر بن البراء بن معرور ، فقال رسول الله ﷺ : ادنوا ، فقعدوا ، وتناول رسول الله ﷺ الذراع ، أو الكتف ، فانتهش منه ، فلما ازدرد ﷺ لقمة ازدرد بشر ما في فيه ، فقال ﷺ : ارفعوا أيديكم ، فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة ، فقال بشر : والذي أكرمك ، لقد

(١) كما جاءت في كتبنا التاريخية الموثوقة .

(٢) غزوة خيبر : المحرم ٧ هـ / آب ٦٢٨ م .

(٣) لأخبار الشاة المسمومة راجع : الاكتفاء ١/١٢٢ ب ، السيرة الحلبية ٢/٦٢ ، السيرة النبوية لابن كثير ٣/٢٩٤ و ٣٩٨ ، ابن خلدون ٢/٣٩٩ ، الطبري ٢/١٥٠ ، الوفا بأحوال المصطفى ٢/٧٦٧ ، الروض الأنف ٤/٦٢ ، البداية والنهاية ٤/٢٠٨ ، الكامل في التاريخ ٢/١٥٠ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية ٢/٢٥٠

وجدت ذلك في أكلتي - أي في لقمتي - التي أكلت ، فما منعني أن ألفظها إلا أن أنغص عليك طعامك ، فلما أكلت ما في فيك ، لم أرغب نفسي عن نفسك ، ورجوت أن لا تكون ازدريتها ، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان - أي أسود - ومأمله وجعه سنة ثم مات .

ثم أرسل ﷺ إلى تلك اليهودية ، فقال : « أسممت هذه الشاة ؟ » ، فقالت : من أخبرك ؟ قال : « أخبرني التي في يدي » ، وهي الذراع ، قالت : نعم ، قال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : بلغت من قومي ما لا يخفى عليك ، قتلت أبي وعمي وزوجي ، ونلت من قومي ما نلت ، فقلت : إن كان ملكاً استرحنا منه ، وإن كان نبياً فسيخبره ، « إن كنت نبياً فلن تضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك » .

ودخلت أخت بشر بن البراء^(١) على رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه ، وبقي رسول الله ﷺ ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي فيه ، فقال : « مازلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خير عداداً - معاودة الألم - حتى كان هذا أوان انقطاع أبيهري^(٢) » .

فهذا هو سبب مرضه ووفاته ﷺ لا « الحياة الزوجية الواسعة التي عاشها » .



« ولقد كان يُعلن أحكامه السياسية في المدينة بوصفها جزءاً من القرآن ، أي جزءاً من الوحي الإلهي » ، ص : ٦٨ .

-
- (١) وفي الطبري ، أن أم بشر هي التي دخلت على رسول الله ﷺ .
(٢) وفي رواية : « مازلت الأكلة التي أكلت بخير تُعَادني فهذا أوان انقطاع أبيهري » ، وتُعَادني : تراجعني ويعاودني ألم سقمها ، والأبهري : عرق مستبطن القلب ، قال ابن مقبل :
وللفســـــــــــــــوَادِ وجيبٌ تحتَ أنْهَرِهِ لِيَذِمَّ الْوَلَيْسِدُ وراءَ الْغَيْبِ بِالْحَجَرِ

إن ما كان يمليه رسول الله ﷺ على أصحابه من كتبة الوحي ، ثبت لدى العدو والصديق ، والمؤمن به وغير المؤمن ، هو غير حديثه ﷺ العادي ، فجميع آيات القرآن الكريم ، إنما هي آيات أوحى بها إليه ، وسمعا منه مباشرة أصحابه الذين كتبوها كلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً ، دون أيّ تبديل أو تحريف ، ولم تسجل بعده بعشرات أو مئات السنين رواية عن تلامذته ، كما حدث بالنسبة لمن سبقه من الرسل ..

ويقول د . عمر فروخ في هامش ص ٦٨ :

« كانت الأحكام السياسيّة إذا نزلت في القرآن اعتبرت جزءاً منه ، أمّا مفردات خطط النبيّ وسياسته ، فكانت أموراً دنيويّة بحتة ، وقد سئل في معركة بدر فيما إذا كان ترتيب المعركة على الشكل الذي اتخذه وحياً من الله ، أم أنّه كان من عنده هو ، فأعلن أن ذلك من عنده هو ، ولما اقترح عليه أن يبدّل ترتيب المعركة فعل^(١) » .



(١) قال الخَبَاب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ، أمزلاً أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدّمه ، ولا نتأخّر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال ﷺ : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » ، فقال الخَبَاب بن المنذر : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالنّاس حتّى نأتي أدنى ماء من القوم ، فأني أعرف غزارة مائه وكفرته ، فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، لأن القلب كلّها حينئذ تصير خلف ذلك القلب ، وتغويرها كيلاً تأتي قريش إليها من خلفهم ، فالغرض إذن قطع أملهم من الماء ، ولفتة الخَبَاب هذه لفتة خبير عليم بقيمة الماء وأهميته في الصحراء ، فجيّش يفقد الماء في مثل طبيعة أرض الجزيرة ، يفقد السيطرة على تصرّفاتِه . لأنّه يكاد يفقد حياته . قال ﷺ : « لقد أشرت بالرأي » ، فنهض ﷺ ومن معه من النّاس ، فسار حتّى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغوّرت ... ويومئذ قيل للخَبَاب بن المنذر : « ذو الرأي » ، [أسد الغابة ٤٣٦/١] .

« إنَّ الوجدانيَّة التجريدية التي كانت إلى حدِّ كبير أساس قوَّة الإسلام ، على غزو القلوب ، واكتساب الأتباع لم تنشأ إلا تدريجيّاً » ، ص : ٧٠ .

إن هذا القول ينفي عن بروكلمان صفة العالم أو الباحث الموضوعي .

إن الأطفال في العالم الإسلامي يعرفون - وحَقّاً ما عرفوا - أن دعوة الإسلام بدأت أوَّل ما بدأت بالدَّعوة إلى هجر الأصنام والأوثان ، للالتزام بتوحيد مطلق ، وعبادة ربِّ السَّماءات والأرض وحده ، خالق كل شيء ، الواحد القهار .

ولو عاد بروكلمان إلى الآيات القرآنية ، ودرس تاريخ نزولها على قلب المصطفى ﷺ ، لوجد أن أوائلها تؤكد على عقيدة التَّوحيد ، التي هي جوهر الإسلام ، وحولها وعليها تقوم جميع المبادئ في الإسلام ، فالله سبحانه يغفر كلَّ شيء إلا أن يشرك به ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] ، فأين التدرج في الدَّعوة إلى وحدانية الله ، وهي التي ما قام الإسلام إلا بالبداية بالدَّعوة إليها ، وبناء الكيان الإسلامي عليها .

هذا ، وسورة الإخلاص مكِّيَّة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ، فأين التدرج ؟

☆ ☆ ☆

« اقتبس النَّبيُّ عن التوراة فكرة الخطيئة الأصليَّة » ، ص ٧٠ .

النَّبيُّ لم يقتبس ، وما دام نصُّ العبارة التي يقولها بروكلمان « اقتبس النَّبيُّ » ، فهو يعترف بأنَّه نبيٌّ ، والنَّبيُّ يحمل دعوة الله إلى النَّاس ، وبالتالي فهو لا يخترع ، ولا يخلق ، ولا يقتبس ، بل يوصل رسالة الله إلى البشر ، وما دام

مصدر الرّسالات السماويّة واحد لا شريك له ، لم يتبدّل ، ولم يتغيّر ، وهو الأبدي الأزلي ، فمن الطّبيعي والبدهي أن تكون في رسالاته المتتابة إلى النّاس ، وألّقي سمع البشر آياتها من إبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم صلوات الله ، أن تكون فيها قصص وأخبار ومبادئ متشابهة ، لأنّها صدرت عن رب واحد لا إله غيره ، وهو الذي أوحى إلى أنبيائه بالشّكل الذي أراد ، وبالأسلوب الذي رغب به ، فهل نقول والحالة هذه : إنّ نبياً اقتبس من آخر ؟ وهل إذا وجدنا آية أو خبراً على لسان المسيح عليه السّلام يشبه ما كان قد جاء به موسى عليه السّلام ، قلنا بأنّ المسيح اقتبس تلك الآية ، أو ذلك الخبر عن موسى ، أو عن التوراة ؟

كان على بروكلمان أن يجد في أي تشابه بين الدّيانات الدليل على وحدة مصدرها ، ومع ذلك الخطيئة الأصليّة ، أو « الخطيئة المميّنة » ، أو الخطيئة بإطلاق ، هي « مفهوم » مسيحي ، ولا صلة له بالإسلام مطلقاً : ﴿ وَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وِزْرًا أُخْرَى ﴾^(١) .

إن خروج آدم من الجنّة مع حواء ، لم يحتمل الجنس البشري إثماً معيّناً ، ولقد أخرج آدم من الجنّة قصاصاً له هو ، أمّا سائر المسلمين ، فلا يعذبون عن آدم ، ولا بسبب آدم . والنّبوة في الإسلام ليست نتيجة لخروج آدم من الجنّة ، بل هي رسالة الله إلى الأمم ، التي تحتاج بين عصر وعصر إلى من يهديها ويدلّها على الصراط المستقيم^(٢) .



« وإنّا ترجع معتقداته فيما يتعلّق بالعالم الآخر إلى مصادر يهودية ، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة » ، ص ٧١ .

(١) وردت في السّور التالية : الأنعام ١٦٤ ، الإسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزّمر ٧

(٢) هامش ص ٧٠ « تاريخ الشعوب الإسلامية » بتصرّف .

يناقض قول بروكلمان هذا ، قوله في ص ٧٣ : « ويتوَعَّد مُحَمَّدُ الْآثِنِينَ بِأَهْوَالِ أُخْرَى غَيْرِ النَّارِ ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَدْرُجٍ نِظَامِي فِي الْعُقُوبَاتِ ، كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي التَّخِيلَاتِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ لِلْجَحِيمِ » ، فَتَصَوَّرُ مُحَمَّدٌ ﷺ لِلْعَالَمِ الْآخِرِ وَمَا فِيهِ ، يَخْتَلِفُ عَنِ التَّخِيلَاتِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ..

ويصح هنا ما ذكر في النص السابق من كون مصدر الديانات السماوية واحد ، فمن الطبيعي أن نجد تشابهاً وتماثلاً في بعض الأمور التي وردت في التوراة والإنجيل والقرآن .

أما ما يتصل منها بالتشابه مع مصادر فارسية وبابلية قديمة ، فلها تفسيرات مختلفة ، منها أن هذه المصادر ربما تأثرت بعقائد وأفكار دينية سابقة لها من الأنبياء غاية في القدم : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر ٢٤] أو أن الإنسان توصل بفطرته إلى بعض المعتقدات التي وردت في الكتب السماوية .

و د . عمر فروخ يعلق على رأي بروكلمان السابق بقوله : « يبدو من هذا المكان ، ومن الصفحات التالية أن معلومات بروكلمان ضعيفة في ناحية الفقه والعبادات ، وهذا غير مستغرب ، فالرجل لغوي في الدرجة الأولى ، من أجل ذلك أحب أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى التفطن لذلك من غير أن أعلق على كل شيء ، وإلا اضطررت إلى أن أبسط حقائق الدين الإسلامي من جديد » . ص ٦٩ .



« وليس من الميسور أن تقرّر على وجه الدقة ، ما إذا كان النبي قد استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية ، ص ٧١ .

وقال بروكلمان في ص ١٠٧ : « ولكن أحداً أوّل الأمر لم يكن يتوقّع أن يعتنق غير العرب الإسلام » .

لو أن بروكلمان كلّف نفسه عناء تتبّع الآيات القرآنية في نزول الوحي بها على نبيّ الإسلام ، لما احتاج أن يقول ما قال ، ولعلم أن النبيّ الكريم كان يتلو على أصحابه من الآيات ما يشعروهم بأنّهم يحملون رسالة عالميّة ، وأنه بعد دعوته لقومه ، ولأصحابه الأقربين ، مكلف بحمل رسالة للنّاس كافّة ، وأنّه رسول للعالمين ، فلم يبعث بدعوته لعشيرته ، أو لقومه ، أو للعرب فقط ، وإنما للبشر جميعاً .

وكيف يخطر في بال بروكلمان أن أحداً أوّل الأمر لم يكن يتوقّع أن يعتنق غير العرب الإسلام ، والمسلمون يتلون الآيات الدّالة على عالميّة رسالة الإسلام ، والتي لا تفرّق بين عربيّ وأعجمي ؟

﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ، [ص ٨٧ - ٨٨] .
﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ،
[الفرقان ١] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، [سبأ ٢٨] .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، [الأعراف ١٥٨] .

فمنذ اللحظة الأولى دعا رسول الله ﷺ جميع النّاس ، وعلم أنّه رسول لكل البشر ، فقد جاء في السّورة الثّانية من حيث التّرتيب التّاريخي لسور القرآن :
﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾ ، [المدثر ٣٦] .

فالنّبيّ استشعر منذ بدء الوحي أنّه مدعوّ لمثل هذه الرّسالة العالميّة ، فبلال أوّل ثمار الحبشة ، وصهيب أوّل ثمار الرّوم ، وسلمان أوّل ثمار الفرس ، وتنبأ ﷺ عند هجرته إلى المدينة ، وهو في أشدّ ساعات الحرج والخطر بأنّ سراقه بن مالك

سيلبس سوارى كسرى ونطاقة عندما قال له : كيف بك ياسراقه إذا سورت بسوارى كسرى ؟ قال سراقه : كسرى بن هرمز ؟ قال ﷺ : نعم ^(١) .
ومن أحاديثه ﷺ : « إني بعثتُ رحمة وكافة فأدُّوا عني يرحمكم الله » ^(٢) .

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان :
« يتحتم على المسلم أن يعلن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم ، لأنَّ محاربة غير المسلمين واجب ديني » ص ٧٨ .

لو كان رأي بروكلمان هذا صحيحاً ، لم يبق مسيحي أو يهودي في ديار الإسلام عندما حقق المسلمون انتصاراتهم الرائعة في اليرموك والقادسية ونهاوند ..
فلا أدري من أي المصادر تقل بروكلمان - الموضوعي ، العميق ، الذي اتَّصف بالشُّمول والجدة - هذه الفكرة ، وهي حتمية عداوة المسلم لغير المسلمين ، وأن محاربة غير المسلمين واجب ديني ، وعكسها هو الصحيح .

لو أن بروكلمان اطلع على مصدر الإسلام الأوَّل وهو كتاب المسلمين القرآن الكريم ، وجمع منه الآيات المتعلقة بغير المسلمين وعلاقة المسلمين بهم ، وهذا أوَّل ما يجب على من يكتب عن الإسلام والمسلمين ، لوجد أنَّ علاقة المسلمين بغيرهم لا تقوم على ما تصوره بروكلمان ، وعلى ما أوحى له به تعصُّبه وحقده ، ولا أريد أن أقول جهله ، فهو العميق المتَّصف بالشُّمول والجدة ، قال الله تعالى يخاطب المسلمين : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، [البقرة : ١٩] .

(١) الكامل في التاريخ ٧٤/٢ ، عيون الأثر ١٨٢/١ ، ابن هشام ٩٦/٢ ، البداية والنهاية ١٨٥/٢ ، السيرة النبوية ٣٧٢/١ .

(٢) الطبري ٦٤٥/٢ .

وهلاً سأل بروكلمان - لو كان لا يعلم - اليهود ، وهم من أكثر الفئات عداً للإسلام والمسلمين ، كيف عاشوا مئات السنين في ظل حكم الإسلام والمسلمين ، وكيف أنهم لم يعرفوا إلا التسامح ، والمعاملة الحسنة في المشرق والمغرب ، وخصوصاً في الأندلس .

أمّا النصارى ، فلا أريد أن آتي بأمثلة من تاريخ علاقتهم مع المسلمين ، بل يكفي أن أذكر قول الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ وَتَجِدُنَ أَقْرَبَهُمْ مَسْوَدَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، [المائدة : ٨٢ - ٨٣] .

ويجب التفريق بين الكفار وبين أهل الكتاب ، الكفار هم عبدة الأوثان ، والعرب الجاهليون من عبدة الأوثان ، فهؤلاء يجب أن يقاتلوا ، لأن العربي لا يجوز أن يبقى وثنيّاً ، أمّا أهل الكتاب كالنصارى واليهود - أيّنا كانوا - فلا سبيل عليهم ، إنهم أحرار في دينهم وشؤونهم ، ولكن الإسلام يقاتلهم إذا نقضوا عهده أو حاربوه ، وهذا يدخل في باب السياسة والحرب ، لا في باب الدين والدعوة .



« والطلاق في الإسلام أمرٌ ميسور جداً غير شك » ، ص ٨٠

ليت بروكلمان قال : والطلاق عند غير المسلمين أمر ميسور جداً ، لكننا غفرنا له بعض خطئه ، أمّا أن يقول بأن الطلاق في الإسلام أمر ميسور جداً ، ليجعل القارئ يعتقد بأن أمر الطلاق كلمة سهلة على لسان كل مسلم ، وهذا ما قصد إليه ، فإنه يكون قد جانب الحقيقة ، وأساء إلى مبدأ أقرّه الإسلام ، وجعل

منه صام أمان لسعادة الأسرة وليس لشقائها كما يتصور الجاهلون والحاقدون ،
فالإسلام أباح الطلاق لحل مشكلة يستعصي حلها في أسرة تبحث عن الاستقرار
والهناء والسعادة .

الطلاق في الإسلام هو آخر سهم في الجعبة ، لا يستخدمه صاحبه إلا إذا
أخفق في كل طريق آخر ، ذلك لأنَّ المسلم يعلم رأي نبيِّ الإسلام ﷺ حيث
يقول : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، فكان على بروكلمان أن يكون
منصفاً ، وأن يقول : إن الطلاق في الإسلام أمر ميسور للمسلم الذي يضطر
إليه ، فقد يعقب الحب كراهية ، والوفاق خلاف ، والتفاهم نزاع ، فيعترف
الإسلام بالأمر الواقع ، ويضع الطلاق حلاً أخيراً : ﴿ فَإِذَا مَكَاتُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
تَسْرِيعٍ بِإِحْسَانٍ ﴾ ، [البقرة ٢٢٩] .

إنَّ الطلاق دواءٌ مرُّ المذاق ، ولكن مرض الشقاق أكثر مرارة وقسوة ، وطالما
بتر الأطباء عضو إنسان حرصاً على الإنسان كله ، والطلاق خير من الموقف الذي
يحصل كثيراً في الغرب عندما تسوء العلاقة بين الزوج وزوجه ، ولا طريق للتوفيق
بينهما ، فيأخذ كلُّ منهما خديناً له ، لأنَّ الزواج غير مباح لأي منهما قبل الطلاق ،
والطلاق يصعب الحصول عليه ، فلتكن الخدانة الأثيمة هي الحل ، وأدركت بعض
الدول الغربية الأمر بعد مظاهرات طالبت البابا بأن يحل لهم الطلاق لينقذ به
شقاء دائماً تعيشه كثير من أسرهم ، فيسرت الحصول على الطلاق ، وكانت آخر هذه
الدول إيطالية ، حيث أباحته عام ١٩٧١ م ، ويكفي أن نعلم أنَّه ما إن أقر الطلاق
في إيطالية ، حتَّى قدَّم إلى المحاكم أكثر من مليون طلب طلاق ، وعلينا أن نتصور
حياة مليون أسرة كانت تعيش حياة الشقاء والنكد داخل البيت ، يفر منها
الزوجان إلى العلاقات غير الشرعيَّة ، ليقوم بذلك نظام غير شرعي هو نظام
الخليلات ، وهو ما تعاني منه المجتمعات الأوربيَّة^(١) .

(١) الإسلام في قفص الاتهام ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٣٢

كما بدأت صناعة التهنئة المختلفة ، تتجه إلى قضايا الطلاق باعتبارها أمراً واقعاً ، فظهرت في بعض أسواق الدُول الغربيّة بطاقات مخصّصة للأشخاص الذين أنهوا علاقاتهم الزوجيّة ، وللأشخاص الذين يودّون تهنتهم بذلك ، فقد حوّت بعض البطاقات عبارات مثل : « تهانينا لطلاقكم » ، و « نحسدكم على حريتكم » ، و « ما أجمل ما صنعتم .. حظاً سعيداً » ، كما أن في الأسواق أيضاً بطاقات مزدوجة متوّجة بكلمة « انقسام » ، وهي خاصّة بالأزواج المطلّقين ، بحيث يكتب الزوج المطلق اسمه وعنوانه ورقم هاتفه على جهة ، وتكتب الزوجة المطلقة كلّ ذلك على الجهة الأخرى ، والسوق الأمريكيّة هي التي يجري فيها حالياً تصريف بطاقات الطلاق أكثر من الأسواق الأخرى إذ أن معدل الطلاق في أمريكا قد ارتفع ٣٣٪ خلال الأعوام العشرة الماضية^(١) .

الطلاق في أوربة أمر ميسور ، وهو في الدُول الاسكنديناويّة أهون الأمور ، إنه شائع عادي متكرر لدى أهل الشمال ، ولا يجد فيه الرّجل حرجاً ، ولا تلقى المرأة منه بأساً ، ولا ينظر إليه المجتمع نظرة نكراء ، ويكاد يكون في نظرهم طبيعياً كالزّواج ، ويبالغ بعضهم فلا يرى في الطلاق ما يعدو تغيير غرفة في فندق !! .

☆ ☆ ☆

« ولم يتعرّض محمّد لنظام الرّقيق بأكثر مما تعرّضت الكنيسة المسيحيّة الأولى لهذا الأساس الذي قامت عليه الحياة الاقتصاديّة عند القدماء ، ولكنه لطّف من حدّة هذا النظام بطرائق مختلفات » ، ص ٨١ .

ما أظن بروكلمان يؤمن بصحّة ما ذكره في كتابه عن موقف الإسلام من

(١) عن الأسبوع العربي ، العدد ٦٨١ ، ص ٦٥

الرَّق والرَّقِيق ، ولا أريد هنا أن أتعرّض لمقارنة بين الإسلام وغيره من الديانات والأنظمة الأخرى ، لما يخشى أن يظن بأنّه تعريض بمواقف الآخرين ، لكنني أقول لو أن صاحبنا - الموضوعي - أنصف وأراد ذكر الحقيقة ، لما قال بأنّ محمّداً لطّف من حدّة هذا النظام بطرائق مختلفة ، بل لقال إنّ الإسلام أوجد طرائق مختلفة لتحرير الرَّقِيق ، والوصول إلى مجتمع لا وجود فيه إلّا لأحرار ، وذلك بفتحه أبواب التّحرر أمام الأرقاء ، وتضييقه لأبواب الرّق والاسترقاق ، وعليه أن يذكر أن استرقاق الأسرى وهو أكبر مصدر للرَّقِيق ليس هو من نظام الإسلام ، ولا من تعاليم محمد ﷺ نبيّ الإسلام ، بل هي أعراف وعادات سادت شعوب العالم قبل ظهور الإسلام ، فإذا استرق المسلمون أسراهم ، فإنّنا هي معاملة بالمثل ليضمنوا من ورائها تحرير الأسرى من جنودهم .

وقول بروكلمان « ولم يتعرّض محمّد لنظام الرَّقِيق بأكثر ممّا تعرّضت الكنيسة المسيحيّة الأولى لهذا الأساس الذي قامت عليه الحياة الاقتصادية عند القدماء ... » ، كان يجب أن يهدّ له بموقف الكنيسة من الرَّقِيق .

لقد أمر بولس الرّسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون السيّد المسيح ، فقال في رسالته إلى أهل (أفسس) : « أيّها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدعة العين كمن يرضي النّاس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للربّ ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير ، فذلك يناله من الرّب عبداً كان أم حراً^(١) ... » .

وأوصى الرّسول بطرس بمثل هذه الوصيّة ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرّق كفّارة من ذنوب البشر ، يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيّد الأعظم ،

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ٢١٦

وأضاف القديس الفيلسوف توماس الإكويني رأي الفلسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرّق بل زكّاه ، لأنّه على رأي أستاذه أرسطو ، حالة من الحالات الّتي خلق عليها بعض النّاس بالفطرة الطّبيعيّة ، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع النّاس من الدّنيا بأهون نصيب^(١) .. » .

وفي المعجم الكبير للقرن التاسع عشر (لاروس) : « لا يعجب الإنسان من بقاء الرّق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم ، فإن نّواب الدّين الرّسميين يقرّون صحّته ، ويسلّمون بمشروعيته .. الخلاصة أن الدّين المسيحي ارتضى الاسترقاق تماماً إلى يومنا هذا ، ويتعذّر على الإنسان أن يثبت أنّه سعى في إبطاله^(٢) » .

فالمسيحيّة لم تعترض على العبودية ، لا من وجهها السّياسي ، ولا من وجهها الاقتصادي ، ولم تقل شيئاً ضدّ حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد إلى طلب الاستقلال ، ولا بحثت عن مضار العبوديّة ولا عن قساوتها ، ولم تأمر بإطلاق العبيد أصلاً^(٣) .

أما الإسلام - كما يقول المرحوم العقاد - « ونحن نحب أن نلخص ما صنعه الإسلام في هذه المسألة قبل أربعة عشر قرناً في بضع كلمات : إنّهُ حرّم الرّق جميعاً ، ولم يبيح منه إلّا ما هو مباح إلى يومنا هذا ، وفحوى ذلك أنّه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع ، وأن الأمم الإنسانية لم تأتِ بمجديد في هذه المسألة بعد الّذي تقدّم به الإسلام قبل ألف ونيّف وأربع مئة عام^(٤) » .

لقد اعتبر الإسلام الرّق عارضاً ، وعمل على إزالته عندما سدّ موارده

(١) حقائق الإسلام .. ص ٢١٦ - ٢١٧

(٢) حقوق الإنسان ، ص ١٢٥

(٣) قاموس الكتاب المقدّس ٦٠/٢ - ٦١ ، طبع الطبعة الأمريكيّة في بيروت سنة ١٩٠١ م .

(٤) حقائق الإسلام .. ص ٢١٨ - ٢١٩

ومنايحه ، وفسح المصارف ووسعها ، « لقد ظل صوت الإسلام يزجر حتى استجاب له العالم بعد عدة قرون من تشريعه الحكيم ، وإن زوال الرّق هو أحد الهدايا التي قدّمها الإسلام للإنسانية »^(١) .

ومن المفارقات الطريفة وبروكلان يقول ما يقول ، أن الرّق في أوربة لم يُلغَ إلا في القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان في الحقيقة إلغاء لاسترقاق الأوربيين فقط ، وكانت أسواق النخاسين التي فتحتها الأوربيون تتمتع برواج عظيم ، وتفيض بربح وافر على تجارها ، وكانت الملكة « إليزابيث الأولى »^(٢) تشارك في الاتّجار بالرقيق ، وكانت شريكة « لجون هوكنز » ، أعظم نخّاس في التاريخ ، وقد رفعته إلى مرتبة النبلاء ، إعجاباً ببطولته ، وجعلت شعاره رقيقاً يرفل في السلاسل والقيود^(٣) .

ومن المفارقات الأطرف ، أن السفينة التي أعدتها لجون هوكنز ، كانت تسمى « يسوع » ، وكان عدد السفن المخصّصة للتّجار بالرقيق ١٩٢ سفينة ، تتّسع حولتها في الرّحلة الواحدة ٤٧,١٤٦ رقيقاً ، وقد طلبت أنجلترة من رجال الدّين مبرراً لهذه التّجارة ، فأسعفوها بنصوص العهد القديم^(٤) - التّوراة - ، والتي منها : « حين تقرب من مدينة لكي تحاربها ، استدعها إلى الصّلح ، فإن أجابتك إلى الصّلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويُستبعد لك ، وإن لم تسالملك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرّب إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحدّ السّيف ، وأما النّساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة ، كل غنيتها فتغننها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك

(١) مقارنة الأديان ٢٢٢/٣

(٢) من ١٥٥٨ إلى ١٦٠٣ ميلاديّة .

(٣) حقوق الإنسان ، ص ١٢٧

(٤) الذي يؤمن النصارى به ، كما يؤمنون بالعهد الجديد

الرَّبُّ إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً ، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربُّ إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما ، بل تحرمها تحريماً^(١) .. » .

فهل غاب كل هذا عن بروكلمان الموضوعي العميق ؟

فيا ضياع وقت من بحث في تاريخنا الإسلامي ، واستند أو اتكأ على بروكلمان ومصنّفاته !!

ولم يفت بروكلمان التبشير ، فقد عاشه ، وأنتج وألف ضمن روحه ونهجه وتعصُّبه .



« أمّا القانون الجزائري في الإسلام فقد ظلَّ على مستوى يقرب من السّذاجة ، وهو لا يمثّل إلاّ تقدّماً ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القانون الوثنيّة القديمة ، فالقاتل عرضة للموت من طريق الثّأر » ، ص ٨٢ .

لا أرى ما يقرب من السّذاجة والجهل ، إلاّ إنساناً يضرب بالحقيقة عرض الحائط ، ويغالي بالتّجاهل إلى هذه الدّرجة ، حتّى ليكاد يقول إن القوانين الوثنيّة هي التي استمر العمل بها في الإسلام ، فهل إذا قيل بأن القاتل عن عمد يُقتل ، كان ذلك من عادات الثّأر والانتقام ؟ أليس قانون قتل القاتل أمراً شائعاً في معظم قوانين العالم اليوم ، والقوانين التي استبدلت الإعدام بالسّجن المؤبد ، تفكّر جدّياً بالعودة إلى الإعدام ، فهل ذلك من طريق الأخذ بالثّأر ؟

وهل يقال عن تلك الدّول الرّاقية التي تقضي قوانينها بأمور تشبه ، أو

(١) سفر التثنية ، الإصحاح العشرون ١٠ - ١٨

تقارب ، بعض ما كان يسود المجتمعات الوثنيّة ، كجعل القاتل العمد عرضة للموت ، هل يقال عنها بأنّها لا تمثّل إلاّ تقدّماً ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القانون عند الشعوب الوثنيّة القديمة ؟

الدُّنيا كلها تعرف - باستثناء أصحاب الأغراض - أن الإسلام أوجد للمسلمين تشريعات قانونيّة مختلفة لجوانب الحياة ، ومنها القانون الجزائي ، وربما رأى بروكلمان شدة أو قسوة وحزماً في بعض الأحكام ، حسب وجهة نظره ، لكن الخالق العظيم هو أعلم بأمور خلقه ، وتشريعاته هي التي تحول دون انتشار الفساد والإجرام في الأرض ، وأمثلة « الدُّول الرّاقية » اليوم من أمثال أمريكة ، خير شاهد على صحة ما نقول من انتشار الجرائم على مختلف أنواعها في ظلّ قوانينها الوضعيّة ، ونظرة سريعة على أرقام إحصاء جرائم القتل والسّرقة والاعتصاب ، تعيدنا إلى الاعتراف بعدالة أحكام السّماء ، ومنها :

- أكثر من مليون طفل أمريكي يُعتدى عليهم جنسياً سنوياً .
- ١٢ مليون طفل بلا أب « غير شرعيين » في أمريكة في عام واحد .
- أسرة من كل عشر أسر أمريكية تمارس نكاح المحارم .
- العصابات في تايلاند تختطف كل أسبوع خمس مئة طفل ، وترجهم إلى تجارة الرقيق الأبيض .
- ٢٥٠ مليوناً يصابون بالسّيلان « مرض جنسي معروف » سنوياً في العالم .
- مليون حالة إجهاض « إسقاط الحمل » سنوياً في الولايات المتّحدة الأمريكيّة .
- مليون امرأة تلد سفاحاً سنوياً في أمريكة ، أكثر من نصفهن في سنّ المراهقة .

- مليوناً حالة إجهاض سنوياً في أوروبا .
- ثلاثة ملايين حالة إجهاض سنوياً في أمريكة اللاتينيّة .

- ٧٥٪ من الأزواج يخونون زوجاتهم في أوروبا .
- ثمانية ملايين امرأة بالغة غير متزوجة في بريطانيا ، ٩٠٪ منهن يمارسن الجنس .

- حالة طلاق بين كل حالي زواج في بريطانيا .
- ٥٠ مليون حالة إجهاض جنائي في العالم سنوياً .
- ما يقرب من ٨٠٪ من الرهبان والراهبات ورجال الكنيسة يمارسون الزنا .
- ما يقرب من ٤٠٪ منهم يمارسون « الشذوذ الجنسي » .
- في بعض الكنائس الأمريكية يتم عقد قران الرجل على الرجل على يد القسيس .

- ١٧ مليوناً شاذون جنسياً في الولايات المتحدة الأمريكية .
- من العسير على المرأة أن تمشي وحدها بعد غروب الشمس في المدن الكبرى في أوروبا والولايات المتحدة .
- تبلغ حالة في كل سبع دقائق من حالات الاغتصاب في المكسيك ، وتقول الأوبزيرفر : إن هذا الرقم لا يمثل سوى ١٠٪ فقط من حالات الاغتصاب ، لأن البوليس متواطئ أيضاً في هذه الحالات^(١) .

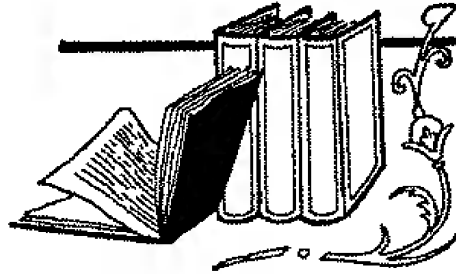
كل ماسبق .. لانجده في العالم الإسلامي ، فهل تساءل بروكلمان والموضوعيون أصحاب الشمول والجدة - لماذا ؟

هذا .. وبروكلمان جمع كل شيء في « قانون الجزاء الإسلامي » في بضعة

(١) « رسالة الجامعة » ، العدد ٢٨٧ ، ١٤ المحرم ١٤٠٦ هـ / ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ ، عن :
(كتاب الأمراض الجنسية للدكتور محمد البار ، وبعض أعداد جريدة الشرق الأوسط) ، ولم نذكر
هنا إحصائيات عن مرض « الرعب » ، مرض الإيدز ، فأكثر من ١٢٥٠٠ شخص في أمريكا
مصابون بالإيدز ، مات أكثر من نصفهم منذ عام ١٩٧٩ م .

أسطر كثيرة الخطأ ، وهذا غير مستغرب ، فالرجل لغوي في الدرجة الأولى ، وكل ما رآه فيه : « فالقاتل عرضة للموت من طريق الثأر » .
إنَّ القاتل في الإسلام لا يثأر منه ، ولكن الدولة تقتله وتقتص منه ، كما تفعل الدول اليوم .

☆ ☆ ☆



افتراءات بروكلمان على عصر الخلفاء الراشدين

« ومن ناحية ثانية كان الأنصار العريقون في المدينة ، يتوقون إلى التحرر من سلطان الأغلبية الممتلئة في المهاجرين ، ليصبحوا سادة موطنهم الوحيدين كرامة أخرى .. » ، ص ٨٣ .

ليت بروكلمان دللنا على مصادر قوله ، وأرشدنا إلى الوقائع والحوادث التي لمس منها نقمة الأنصار على المهاجرين ، ورغبتهم في العودة إلى أن يكونوا سادة في وطنهم ، ليتهم وثق ما يقول ، لنستند ونتكئ عليه عند بحثنا في التاريخ الإسلامي ، ولكن بروكلمان ينظر إلى تاريخ الإسلام والمسلمين بمنظار أوربي مادي ، ونسي أو تناسى - وهو الأصح - أن مجتمع المدينة بأنصاره ومهاجريه ، أصبح كياناً واحداً ، امتزج بأخوة لم تعرف لها أوروبة ولا غيرها مثيلاً .

لقد كانت أخوة العقيدة بين الأنصار والمهاجرين أخوة ارتفعت بأصحابها فوق مفهوم السيادة في الوطن ، هذه الأخوة توضحها لنا أمثلة أكثر من أن تحصى ، فقد كان الأنصاري يقدم لأخيه المهاجر كل شيء ، لأنه قدم قبل ذلك وبعده عن قناعة ورضى كل ذلك في سبيل العقيدة التي آمن بها ، واستقبل بسعادة ما بعدها سعادة رسول الإسلام وأصحابه ، حين هاجروا إلى المدينة ، ومواقف الأنصار في غزوات الرسول ﷺ أكبر شاهد على ذلك .

قال سعد بن معاذ^(١) قبيل بدر الكبرى مخاطباً رسول الله ﷺ : « قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم ، وإنني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاطعن حيث شئت ، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله »^(٢) .

أما إذا قصد بروكلمان بكلامه عن الأنصار ، تلك الفئة المنافقة التي كان يرأسها عبد الله بن أبي بن سلول ، فهؤلاء لم يكونوا من الأنصار ، وإنما كانوا من المنافقين ، الذين أظهروا الإسلام خوفاً وطمعاً ، وأبطنوا العداوة له ، وقد كشفت عنهم أعمالهم ، وفضحهم القرآن الكريم بآيات أوحى بها إلى الرسول ﷺ عن حقيقة نواياهم^(٣) ، وحذره منهم : ﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ ، [التوبة : ٥٦] .

(١) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ، الأوسي الأنصاري ، صحابي من الأبطال ، من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، وحمل لواءهم يوم بدر . وشهد أحداً ، فكان من ثبت فيها . رمي بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه (٥ هـ = ٦٢٦ م) ، دفن بالبقيع وعمره سبع وثلاثون سنة ، [الأعلام ٨٨/٣] .

(٢) ابن هشام ١٨٧/٢ ، هامش السيرة الحلبية ١٦٠/١ ، الطبري ٤٣٤/٢ ، البداية والنهاية ٢٦٤/٢ ، طبقات ابن سعد ١٤/٢ .

(٣) في كتاب الله عز وجل سورة كاملة اسمها « المنافقون » ، ترتيبها ٦٣ ، وآياتها ١١ .

فأية أغلبية وأقلية يتصوّرها بروكلمان ، المبشر الخفي ؟!

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان عن مسيئة :^(١) « أوصى بالصيام ، وحرّم الخمر ، وحضّ أتباعه على الطهارة والعفة .. » ، ص ٨٥ .

الصواب ، إنه لم يستقر على رأي ، فمرة يحرم ومرة يحلل ، لقد أحل لأتباعه الخمر والزنا ، ووضع عنهم الصلاة ، لكنّه متقلّب متغيّر ، فقال : لما رأيت وجوههم حسنت ، وأبشارهم^(٢) صفت ، وأيديهم طفّلت^(٣) ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار تصومون^(٤) ..

وإن كان مسيئة قد فعل ذلك ، من دعوة إلى صيام ، وطهارة وعفة ، وتحريم للخمر ، فربما تظاهر بذلك ليكسب إلى صفوفه المسلمين الذين يعلمون أن الإسلام يأمر بذلك ، علماً بأنّ سلوك مسيئة لم يكن متفقاً مع مادعا إليه من هذه الأمور ، فسلوكه منذ بداية ظهور أمره ، يدل على أطماع شخصيّة للوصول إلى حكم وسيادة ، وما جرى بينه وبين رفيقته في ادعاء النبوة سجاح ، من فحش وبذاءة ، ترفع عن ذكره هنا .

☆ ☆ ☆

وفي معرض حديث بروكلمان عن مالك بن نويرة ، قال : « أمر خالد بقتله ، وبقتل جميع أتباعه طمعاً منه في زوجة مالك الجميلة ، على ماتقول الرواية » ، ص ٨٦ .

(١) سناه بروكلمان « مسئلة » ١٢

(٢) في الطبري ٢٧٢/٣ : وأبصارهم صفت .

(٣) طفّلت : صارت طفلة ، أي صفت .

(٤) البداية والنهاية ٢٢١/٦ ، الطبري ٢٧٢/٣

خالد بن الوليد تلميذ مدرسة الإسلام والإيمان ، إنه القائد الذي لم يعرف الهزيمة ، وسيف الله المسلول ، والمقبول بلا مزاحم من جمهور المسلمين وقاداتهم ، فلا يعقل أن يقدم على قتل رجل للحصول ، أو للوصول ، إلى زوجته مهما كانت جميلة ، وجماليات جزيرة العرب يتنن أن تكون الواحدة منهن زوجة لبطل من أشهر قادة العرب والمسلمين .

وخالد لا يحتاج إلى ورقة حسن سلوك ، وبراءة من كاتب أوربي اسمه كارل بروكلمان ، امتلاً تاريخه الأوربي بمثل ما يدّعي من حادثة خالد مع خصمه مالك بن نويرة ، لكن المثال يختلف ، فخالد لم يقتل مالكا من أجل الوصول إلى زوجته ، وإن كان قد تزوّج بها بعد ذلك ، وكثيرة هي الأقلام التي تناولت بالبحث موضوع خالد ومالك ، ومعظم من كتب حول هذه الحادثة ، لم يصل منها إلى اتهام القائد الكبير العظيم بما يمس كرامته ورفعة شأنه .

والتاريخ يقول : ماقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة إلا بعد أن حاوره ، وأنبه على ما صدر منه من متابعة سجاح ، وعلى منعه الزكاة ، وقال خالد له : ألم تعلم أنها قرينة الصلاة ؟ فقال مالك : إن صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - كان يزعم ذلك ، فقال خالد : أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟ يا ضرار اضرب عنقه ، فضرِبَ عنقه ^(١) .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمتهم بن نويرة (أخي مالك) : لوددت أنّي رثيت أخي زيدا بمثل ما رثيت به مالكا أخاك ، فقال له متم : يا أبا حفص ، والله لو علمت أن أخي صار حيث صار أخوك مارثيته ، فقال عمر :

(١) لأخبار مالك : الاكتفاء ٨/٢ ، البداية والنهاية ٢٢١/٦ ، ابن خلدون ٧٢/٢ ، الكامل في التاريخ ٢٤١/٢ ، الطبري ٢٨٠/٣

ما عزاني أحد عن أخي مثل تعزيتة^(١) . وهذا يدل على أن مالكا لم يكن مسلماً ،
وإلا لعرف ذلك أقرب الناس إليه ، أخوه متمم ، ولما رثاه ، ولعلم أنه مات مسلماً
صادقاً فالجنة مثواه .



« فقد كان فريق من العرب يعيشون في ظلّ الإمبراطورية البيزنطية ، كما
كان فريق منهم يعيشون في ظلّ الإمبراطورية الفارسية ، فمن الضروري أن يحمل
إليهم إخوانهم المؤمنون بركات الإسلام وآلاءه » ، ص ٩٣ .

سخرية لاتليق بمؤرخ (كبير) ، وأديب (عظيم) ، وُصِفَ بالموضوعية
والعمق والشمول والجِدَّة !!

وقول بروكلمان يحمل في طياته أخطاء تاريخية أيضاً ، كنا نتمنى أن
يتجنبها مؤرخ في مثل مكانته ، فأضاف بذلك ماأضاف إلى السخرية والهزء ، مما
يدل على تعصب وحققد ، وبعد عن الموضوعية ، كنا نأمل أن يتعد عنها ،
ليكون أهلاً بأن يتَّصف بالحياد والتَّجرد والعلمية والمنهجية في البحث ، حين
تنطج لكتابة تاريخنا .

فلندع الهزء والسخرية جانباً ، ونناقش الأخطاء التاريخية ، في قوله : كان
فريق من العرب يعيشون في ظلّ الإمبراطورية البيزنطية ، وفريق آخر منهم
يعيشون في ظلّ الإمبراطورية الفارسية .

القارئ لهذا القول ، والبعيد عن معرفة الحقيقة ، يتراءى له أن هذا الفريق
من العرب هم جالية غريبة ، تقيم في دولة هي الدولة البيزنطية ، ودولة أخرى

(١) الاكتفاء ٨/٢ ، حروب الردة ص ١٨١ ، ومع ذلك ، لما قال مسلم واحد (وهو أبو قتادة) إنّه
مسلم وقتل خطأ ، لأنّه لم يشهد كما شهد غيره حوار خالد مع مالك ، دفع أبو بكر ديتشه من بيت
المال ، كما دفع رسول الله ﷺ دية بني جذيمة من بيت المال عندما قُتلوا خطأ .

هي الدولة الفارسية ، وكأنه صعب على بروكلمان أن يعترف بالحقيقة ، وهي أن سكان بلاد الشام كانوا من العرب في ظل حكم استعماري أجنبي غريب عنهم هو حكم الإمبراطورية البيزنطية ، وكذلك شأن عرب بلاد الرافدين ، الذين كانوا يخضعون لحكم استعماري أجنبي ، هو حكم الدولة الفارسية ، وأن العرب المسلمين حين خرجوا من جزيرتهم ، إنما أرادوا تحرير هذه البلاد العربية ، وتحرير سكانها من أبناء عموماتهم عرب الفساسنة ، وعرب المناذرة ، فضلاً عن حل رسالة الإسلام إليهم وإلى غيرهم ، فهل هذا ما قصده بروكلمان في قوله : « فن الضروري أن يحمل إليهم إخوانهم المؤمنون بركات الإسلام وآلاءه » ؟ .

نعم ، لقد كانت من بركات الإسلام أنه أخرج من جزيرة العرب أولئك المؤمنين من أبنائها ، ليحرروا الأرض من المستعمرين والمستبدين ، وليحرروا النفوس من العبودية لغير الله .

أما قال أهل حمص للمسلمين عندما اضطروا إلى الانسحاب جنوباً إلى اليرموك : « إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم .. والتّوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن تغلب » ^(١) ، ردّكم الله علينا ، ونصركم عليهم - أي على الروم - فلو كانوا هم ، لم يردّوا علينا - من أموالنا - شيئاً ، وأخذوا كلّ شيء بقي لنا ^(٢) ؟ .

فأي بركة وخير أرقى وأسمى من بركة العدل والطمأنينة والحرية وحفظ المال والأعراض ؟ وهذا ما حمله الإسلام إلى كل بقعة وصلها ، مع المدارس والمكتبات والخدمات الصحيّة .

(١) فتوح البلدان ، ص ٧ .

(٢) الدّعوة إلى الإسلام ص ٧٩ ، الحزاج لأبي يوسف ، ص ٨١ .

بروكلمان - العالم الموضوعي - يعلم بذلك يقيناً ، ومع ذلك أثر الهزء
والسخرية على « بركات الإسلام » .



وقال عن معركة اليرموك : « هزيمة شعاء ، ذلك لأن الأرمن الذين كانوا
يؤلفون نصف جيش الروم ، كانوا حاقدين على الدولة البيزنطية ، غير راغبين
في القتال » ، ص ٩٥ .

ما كنت أتصور أن المؤرخ الشهير بروكلمان يصل به الأمر إلى تبرير انتصار
العرب المسلمين على الروم البيزنطيين في معركة حاسمة في فتوح بلاد الشام ، وهي
معركة اليرموك ، بوجود الأرمن في جيش الروم ، وهم حاقدون وناقمون على
دولة الروم فلم يقاتلوا مجداً في المعركة ، وحبذا لو ذكر لنا هذا المؤرخ الكبير ،
المصدر أو السبيل الذي عرف منه أن الأرمن كانوا يؤلفون نصف جيش الروم .

وهل وصل الغباء بالقائد العسكري الشهير ، إمبراطور دولة الروم هرقل ،
ومن حوله من كبار قادة الروم ، أن يلاقوا العرب المسلمين بجيش نصفه من
الأرمن ، وهم يعلمون حقيقة موقفهم من دولة الروم ؟

لماذا صعب على بروكلمان أن يعترف بالحقيقة ، التي اعترف بها كثيرون من
المؤلفين والمؤرخين من عرب وغير عرب ؟ وهي أن من أهم أسباب انتصار العرب
المسلمين ، وهزيمة الروم ، ارتفاع المعنويات لدى جيش المسلمين ، أي قوة
إيمانهم ، واندفاعهم إلى طلب الشهادة ، والاستهتار بالحياة ، فضلاً عن القيادة
الحكيمة والخبرة ، التي تمثلت بسيف الله المسلول خالد بن الوليد ، ومن كان
يرافقه من قادة العرب ، أمثال : أبي عبيدة ، وعمر بن العاص ، ويزيد بن أبي
سفيان ، وشرحبيل بن حسنة .. إنه لمن السخف القول : إن الأرمن المسيحيين ،
كانوا سبب انتصار العرب المسلمين ، وهزيمة الروم !!



وقال بروكلمان عن معركة القادسية : « إنَّ المصادر حافلة بالتفاصيل الرومانتيكيَّة عن هذه المعركة ، ولكنها لا تكفي كلُّها لأن نكوِّن صورة واضحة عن سيرها » ، ص ٩٧ .

لأدري لماذا يصف بروكلمان التَّفصيل الواردة في مختلف المصادر عن معركة القادسيَّة^(١) بأنَّها تفاصيل رومانتيكيَّة ، ومع كل تلك التَّفصيل ، فإنَّها حسب رأيه لم تكوِّن لديه صورة واضحة ؟

وهل يقول بروكلمان مثل هذا القول عندما يدرس ويكتب عن معركة أوريَّة ؟

وإذا وردت عنها مثل تلك التَّفصيل ، هل يعتبرها غير كافية لتوضيح الصُّورة عن تلك المعركة ؟ ما أظن ذلك ، إنَّه التَّعصب الَّذي يحرف صاحبه عن طريق الإنصاف في أحكامه ، ويبعده عن الموضوعيَّة في دراسته للأحداث .

معركة القادسيَّة من المعارك النادرة في تاريخ الحروب عامَّة ، وتاريخ الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة خصوصاً ، وقد ذكرت لنا المصادر المختلفة^(٢) عن هذه المعركة تفاصيل رائعة يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، وذكرت لنا تفاصيل تحدث لأوَّل مرَّة بالنسبة للعرب ، مثل مواجهتهم سلاحاً جديداً لا عهد لهم به ، وهو استخدام الفُرس للفيلة في هجومهم ، ووضعت لنا المصادر التَّاريخيَّة موقف العرب المسلمين ، وتغلُّبهم على هذه المشكلة ، أو الأسلحة الجديدة الخطيرة ، والبطولات الَّتِي قام بها أبطال لعت أساؤهم في سماء القادسية ، وفي

(١) القادسية : المحرَّم ١٤ هـ ، صيف ٦٣٥ م ، بقيادة سعد بن أبي وقاص ، وموقعها : في العراق شمال ذي قار ، قرب الفرات .

(٢) انظر لأخبار القادسيَّة : الطُّبري : ٥٤١/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ٢٢٨/٢ ، البداية والنهاية : ٤٢/٧ ، ابن خلدون : ٩٨/٢

مقدمتهم القعقاع بن عمرو التميمي^(١) وأخوه عاصم .

وأغرب ما في قول بروكلمان أنَّ تلك التفاصيل لم تقدّم لنا صورة واضحة عن سير المعركة ، علماً بأنه لو قرأ فنان تفاصيل المعركة ، لرسّمها لنا دون أن يجد صعوبة في توضيح ما حدث فيها .

☆ ☆ ☆

« الصخرة المقدّسة التي يعبدّها اليهود والنصارى والمسلمون جميعاً منتصف الأرض .. » ص ٩٨ .

أنا واحد من أولئك المسلمين الذين قال عنهم بروكلمان بأنّهم يعدّون الصخرة المقدّسة منتصف الأرض ، ولم أسمع بذلك ، ولم أقل به ، وسألت كلّ من حولي فوجدتهم مثلي لا علم لهم بما ينسبه إليهم مؤرخنا « الكبير » بروكلمان ، فهل يكتب التاريخ بهذه الطريقة ؟ أين مصادره التي اعتمد عليها في مثل هذه الأخبار ؟

وماذا يستفيد بروكلمان حين ينسب إلى المسلمين مثل هذه الأقوال ؟

ولا أعلم إن كان مانسبه لليهود والنصارى اتّبع به الطّريقة نفسها !!
وهل هم حقاً يعدّون تلك الصخرة منتصف الأرض ؟
وماذا يعني بقوله إنّها منتصف الأرض ؟!

☆ ☆ ☆

(١) القعقاع بن عمرو التميمي : أحد فرسان العرب وأبطالهم في الجاهليّة والإسلام ، له صحبة ، شهد اليرموك وفتح دمشق ، وأكثر وقائع أهل العراق مع الفرس ، وسكن الكوفة ، وأدرك صفين فحضرها مع علي رضي الله عنه ، وكان شاعراً فحلاً ، توفي نحو سنة ٤٠ هـ .

« كان الغزاة العرب يجوسون خلال الدّيار غانمين مخزّيين » ، ص ١٠٠ .

هل يظن بروكلمان عندما يكتب في وصفه للعرب المسلمين خلال فتوحاتهم ، أنّه يكتب عن الشعوب الجرمان ، أو من عرفوا في التاريخ باسم برابرة الجرمان ؟ أو أنّه يكتب عن شعوب الهون ، تلك الشعوب الّتي قلبت أوربة رأساً على عقب ، وحوّلتها إلى خرائب وأطلال ، وأعمدة من ألسنة اللّهب والدّخان ، واندثرت تحت سنابك خيولهم حضارة الرّومان واليونان ، وساد الجهل والظلام في جميع أنحاء أوربة .

أمّ تراه يتحدّث عن كشف قومه الأوربيين الجغرافية ؟ والّتي لم تكن التّجارة همها الوحيد ، بل كانت كشفهم وتجارهم مرتبطة بالعمل المقدّس ، ونشر الديانة المسيحيّة بين المسلمين والوثنيين ، وقد عبّر عمانوئيل ملك البرتغال [١٤٩٥ - ١٥٢١] عن أغراض الحملة الأولى في خطبة طويلة جاء فيها : « إنّ الغرض من اكتشاف الطريق البحري إلى الهند ، هو نشر المسيحيّة والحصول على ثروات الشّرق ^(١) » ، وباسم هذا العمل المقدّس أبادوا أمماً ، وحرّقوا شعوباً ، ونهبوا خيرات ومناجم لا تقدّر بثمن ، وتاجروا بالرّقيق .. إن ماعمله الأوربيون في شواطئ إفريقية ، وفي أمريكا الوسطى والجنوبية ، وفي جنوب شرقي آسيا ، وفي أستراليا ، معروف ومشهود ، وآثاره باقية حتّى يومنا هذا .

إنّ ما قام به بارتلميو دياز ، وفاسكودوغاما ، والشرير الشرّس البوكيرك .. لم يقم به مطلقاً من قبل طارق ، أو محمد بن القاسم الشّقي ، أو قتيبة بن مسلم الباهلي .. وبروكلمان « العالم الكبير » يعلم ذلك يقيناً !!

إنّ الفاتحين العرب المسلمين كنّت تسير الحضارة إلى جانب جيوشهم ،

(١) تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ، للشيخ أحمد زين الدين المعبري المليباري ، تحقيق محمد سعيد الطريحي ، مؤسسة الوفاء - بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٤٦

وترتفع منارات سامقة للعلم حيثما ارتفعت راياتهم منتصرة . وينتشر الأمن ، والعدل ، والتسامح ، والإخاء حيث يستقر لهم الحكم ، وإذا كان بروكلمان يريد تأكيداً ، وتوضيحاً وتوثيقاً لما نقول ، فليفتح صفحات تاريخ فتوح العرب المسلمين في بلاد فارس والهند ، وفي خراسان وما وراء النهر ، وفي الأندلس وصقلية ..

« يجوسون خلال الدّيار غانمين مخزّبين » ، يقولها منصف عن تتار العصور الوسطى ، وتتار القرن العشرين ، لا عن العرب الفاتحين ، أبعد الله عن أقلامنا الحقد ، وعن عيوننا غشاوة التعصّب .

☆ ☆ ☆

« ولعلّ المؤمنين كانوا يتوقّعون أثناء حياة النّبيّ ، أن يظل هو على رأس الجماعة الإسلامية إلى يوم الحساب بالذّات » ، ص ١٠٥ .

هذا التّوقّع لم يكن يدور إلّا في رأس بروكلمان ، ذلك لأنّ المؤمنين الذين يتكلّم عنهم كانوا يتلون ممّا حفظوه من آيات القرآن الكريم ، قوله تعالى إلى نبيّه الكريم محمد ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، [الزمر : ٢١] ، وفي [سورة الأنبياء ٢٤] : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ أَخْلَدَ أَقْبَانٍ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ ، وفي سورة الأنبياء أيضاً ، الآيتان الكريمتان ٧ و ٨ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ .

فكيف كانوا يتوقّعون دوام حياته إلى يوم القيامة ؟

أمّا إذا كان اعتماد بروكلمان فيما قاله على موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد فات صاحبنا « الموضوعي العميق » ، صاحب الشُّمول والجِدَّة « أنّ عنصر المفاجأة في حال الموت لشخص عزيز جداً ، تفعل مثل ذلك ، وتفقد الإنسان

صوابه ، ولكن سرعان ما يعود المؤمن إلى إيمانه ، وآيات كتابه الكريم ، كما حدث لعمر ، عندما رأى موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه أمام الفاجعة الكبرى بوفاة الرسول العظيم ﷺ : « من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات » ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه يعلم علم اليقين أنه ليس بين المسلمين من يعبد محمداً ، لكنه يذكرهم بوحدانية الله عز وجل ، وبإنسانية الرسول وبشريته ، وأن نهايته كنهاية أي مخلوق ، وهي الموت .

قال عمر رضي الله عنه : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعمرت^(١) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات^(٢) .

فالاستدلال بجزئية واحدة على الأمر الكلي ، أو جعل الواقعة الجزئية قضية كلية وقاعدة عامة .. لا تليق ، ولا تصح عند « الموضوعيين عميقي الشمول والجدة » .



- (١) عَقَرَ الرَّجُلُ عَقْرًا : فجثه الرُّوعُ فدهش فلم يقدر أن يتقدم أو يتأخر ، (اللسان : عقر) .
- (٢) الطُّبْرِي ٢١٠/٣ ، الرُّوضُ الْأَنْفُ ٢٦٠/٤ ، فتح الباري ٢٣/٧ ، حلية الأولياء ٢٩٧/١ ، وفي الطُّبْرِي ٢١١/٣ : قال ابن عباس : والله إنني لأمشي مع عمر في خلافته وهو عامد إلى حاجة له ، وفي يده الذرة ، وما معه غيري ، قال وهو يحدث نفسه ويضرب وحشي قدمه بدرته : يا بن عباس ، هل تدري ما حلني على مقالتي هذه ، ألتي قلت حين توفى الله رسوله ؟ قال : قلت : لا أدري يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم ، قال : والله إن حلني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، فوالله إنني كنت لأظن أن رسول الله سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بأخر أعمالها ، فإنه للذي حلني على أن قلت ما قلت .

« وإذا كان العرب يؤلفون طبقة المحاربين ، فقد كان الأعاجم من الجهة الثانية هم الرعيّة ، أي القطيع ، وجمعها رعايا ، كما يدعوهم تشبيه ساميّ قديم كان مألوفاً حتّى عند الآشوريين ، وفيما كان المسلمون لا يدفعون إلى خزانة الدولة غير الزكاة ، كانت الرعيّة تدفع الجزية ، عاملةً بذلك على إعالة المسلمين .. » ، ص ١٠٨ .

يسا ضياع وقت من بحث في تاريخنا الإسلامي ، واستند أو اتكأ على بروكلمان ومصنفاته .

لقد نسي مؤرخنا « الكبير » بروكلمان ، أنّ التّقسيمات التي تدور بذهنه ، أو عرفتْها بلاده في عصر من تاريخها ، تختلف عمّا كانت عليه الحال في تاريخ الشرق أثناء فترة الحكم الإسلامي لها .

والعرب لم يكونوا يشكّلون طبقة المحاربين كما وصفهم بروكلمان ، حتّى في العصر الأموي ، فترة ازدهار العنصر العربي ، وغلبة الروح العربيّة ، والنّزعة العربيّة ، فلم يكن الأمر كما وصف ، وإلاّ فكيف تكوّنت تلك الفِرَق من المحاربين غير العرب ؟ وكيف ارتفع شأن قادة من غير العرب ، كطارق بن زياد ؟ وهل كان من معه من قومه قطيعاً من المواشي ، كما وصفهم بروكلمان ؟

إنّ إصدار الأحكام بهذه العموميّة ، أمر لا يتفق مع الدّقّة العلميّة ، والموضوعيّة في كتابة التّاريخ ، فما علاقة الآشوريين بما يدور من أحداث في التّاريخ الإسلامي ؟ ألا يعلم بروكلمان بعد ، أنّ عقيدة جديدة حملها العرب المسلمون ، وبذّلت من حياتهم ومفاهيمهم وقيمهم ، وأنّهم حملوها رسالة حضاريّة إلى شعوب الأرض ، تمثّلت بهم سلوكاً ومعاملة ، فإن وجد غير ذلك فهو الشّدوذ عن القاعدة ، وأن العرب المسلمين ما نظروا إلى الشعوب الأعجميّة كما نظرت دول أوربة إلى مستعمراتها كسادة وعبيد ، لأنّ دستور العرب المسلمين الذي حملوه إلى

تلك الشعوب ، ويتلونه صباح مساء يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات ١٢] . وما كان انتشار الإسلام بين تلك الشعوب - من الأعاجم - إلا بفضل تلك النظرة الإسلامية في المساواة وعدم التمييز والتفاضل .

أمّا الزكاة والجزية ، فليت بروكلمان أنصف في الكتابة عليهما ، بعد أن درس حقيقتها ، ونسأله : لماذا كانت الجزية عاملة على إعالة المسلمين فقط ؟ فهل كانت الزكاة تلقى في البحر ؟ .

إنّ موارد الزكاة هي أكثر بكثير من موارد الجزية المحدودة ، ألم تصرف أموال الزكاة في إعالة المسلمين ؟ وهل كانت هي الضريبة الوحيدة التي يدفعها المسلمون للدولة ، إنّ عودة - ولو سريعة - إلى النظام المالي في دولة العرب المسلمين ، توضح جوانب كثيرة غفل عنها - أوتجاهلها على الأصح - المؤرخ « الكبير » بروكلمان .

ونتساءل : ما مقدار الجزية التي كانت - برأي بروكلمان - عاملة على إعالة المسلمين ؟

لقد كانت ٤٨ درهماً في العام - حوالي جنيهين - على الأغنياء ، وعلى متوسطي الحال ٢٤ درهماً في العام ، وعلى العمال والصّناع ١٢ درهماً فقط - نصف جنيه في العام - ، فهي إذن مقدار ضئيل يسير من المال ، يدفع في كل عام مرة واحدة ، وتتفاوت قيمته حسب حال الذّمي الماليّة ، « ويعيّن مقدار الجزية حسب حالتهم الاقتصادية ، فيؤخذ من الموسرين أكثر ، ومن الوسط أقل منه ، ومن الفقراء شيء قليل جداً ، والذين لا معاش لهم ، أو هم عالة على غيرهم يعفون من أداء الجزية .

هذا ، وإن كانت الجزية لم يعيّن لها مقدار بعينه ، إلا أنّه من اللازم عند

تعيين المقدار أن تراعى فيه السهولة ، فيقرر منه ما يتيسر أدائه لأهل الذمة ، وكان عمر رضي الله عنه قد جعل لكل رأس موز ثمانية وأربعين درهماً ، وللوسط أربعة وعشرين درهماً ، وللفقير اثني عشر درهماً^(١) .

ومن يصبح فقيراً أو محتاجاً من أهل الذمة فلا يعفى من الجزية فحسب ، بل يجري له عطاء من بيت المال ، وإن مات أحد الذميين وعليه شيء من الجزية ، فلا يؤخذ من تركته ، ولا يكلف ورثته بأدائه ، ويقول الإمام أبو يوسف : « إن وجهت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه ، أو أخذ بعضها وبقي بعضها الآخر لم يؤخذ بذلك ورثته ، ولم تؤخذ من تركته »^(٢) .

ولكن .. لماذا يدفع الذميون الجزية^(٣) ؟

لأنهم ينتفعون بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء والشرطة والمرافق العامة الأخرى كالطرق والجسور ومشاريع الري والمستشفيات .. « وتحتاج إلى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ، ويسهم أهل الكتاب بالجزية في تكاليف هذه المرافق »^(٤) .

فإذا علمنا أن الطفل والمرأة والشيخ يعفون من الجزية ، ومن لا معاش له ، أو من هو عالة على غيره يعفى أيضاً من أداء الجزية مهما كان عمره ، ويدفع الموسر الغني من أهل الذمة ٤٨ درهماً فقط في كل عام ، ويدفع متوسط الحال ٢٤ درهماً فقط ، ويدفع العمال والصناع - وهم الذين يشكلون سواد الأمة - ١٢ درهماً فقط في كل عام . فإن غنياً واحداً مسلماً يدفع ألوف الدراهم زكاة ماله كل عام ، وهذا

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف ، ص ٣٦

(٢) كتاب الخراج ، ص ٧٠

(٣) انظر : الجلسة العاشرة « الذميون والجزية » ، من كتاب الإسلام في قصص الانبياء ، ص ١٣٩ ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٩٨٢ م .

(٤) مقارنة الأديان ١٥٢/٣

يعني أنَّ ما يدفعه موسر غني ذمي طوال حياته ، لا يشكّل ولو جزءاً يسيراً مما يدفعه مسلم واحد في عام واحد .

إن ما تعامى عنه بروكلمان ، يثبت أن التبشير الذي قنّى أن يمارسه مع بدايات حياته ، لم يفته في أخريات حياته . لقد أعمته الصليبيّة ، وأضله التعصب ..

ولم نعدم منصفاً أوربياً تفهم الحقيقة ، وتكلّم بموضوعية في هذا المجال ، يقول غوستاف لوبون : « جزية زهيدة تَقِلُّ عَمَّا كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب »^(١) ، فما دفعه أهل الكتاب إلى بيت مال المسلمين قُبالة انتفاعهم بالمرافق العامة وحمايتهم ، لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكومتهم المسيحيّة البيزنطية ، فهاذا علّق بروكلمان على هذا ١٢ .

وتقول لورافيشيا فاغليري : « ادفعوا جزية يسيرة تُسَبِّغْ عليكم حماية كاملة »^(٢) .

وأخيراً .. نذكّر بروكلمان بقول عمر بن عبد العزيز : « إنَّ الله بعث مُحَمَّدًا ﷺ داعياً ، ولم يرسله جايياً »^(٣) .

ونذكّره بأن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام ، ثم عرف المسلمون أنَّ الروم أعدّوا جيشاً كبيراً لمهاجمتهم ، فأدركوا أنَّهم قد لا يقوون على الدِّفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم ، وقالوا لهم :

(١) حضارة العرب ، ص ١٢٤

(٢) دفاع عن الإسلام ، ص ٣٢

(٣) الكامل في التاريخ ١٥٨/٤ ، الطبري ٥٥٩/٥ ، ابن خلدون ٧٥/٣ - ٧٦

شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حصص : إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهضوا بذلك فسقطت الجزية عنهم^(١) .

ومما قالوه : « والتَّوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حصص ، إلا أن نُغَلَّبَ »^(٢) .

« ردَّكم الله علينا ونصركم عليهم - أي على الرُّوم - فلو كانوا هم ، لم يردُّوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شيء بقي لنا »^(٣) .

وما أظن أن ما أثبتناه هنا حول الجزية ، كان بروكلمان يجهله ، لكنها « الموضوعية » في البحث ، والبحث بموضوعية ، تغيير المفاهيم ، وتقلب الحقائق ، ما دام التعصُّب في العقول ، والصُّلبيَّة في النفوس ، وما دام محور البحث الإسلام وأهله !!



وقال بروكلمان عن أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه : « لم يحالفه التَّوفيق في الحكم على الحالة الدَّوليَّة ، وبخاصَّة فيما يتعلَّق ببيزنطة ، تطَّلَعَ أوَّل الأمر إلى المشرق ، نحو الإمبراطوريَّة الفارسيَّة ، بعد أن رأى إلى ضعفها البتَّين منذ عهد غير قصير » ، ص ٩٠ .

كلام « موضوعي عميق » ، فيه « شمول وجِدَّة » ، ويثبت ذلك أدلته واستشاداته التي تؤيِّد آراءه ، ليبعد عنها الضَّحالة ، والافتراء والتَّخَبُّط ؟!

(١) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ١٤٣

(٢) فتوح البلدان ، ص ٧

(٣) أبو يوسف ، ص ٨١ ، الدَّعوة إلى الإسلام ، ص ٧٩

لم يحالف التوفيق أبا بكر في الحكم على الحالة الدولية ، ما الدليل ؟ ومن أين تلمس بروكلمان ذلك ؟!

فتطلع أول الأمر إلى المشرق نحو الإمبراطورية الفارسية ، بعد أن رأى إلى ضعفها البين منذ عهد غير قصير ، بأي شيء لاح ضعفها البين ؟ وما الأمور التي تلمسها الصديقي ، واطلع عليها بروكلمان ، فعرف أن أبا بكر رأى ضعف الإمبراطورية الفارسية فتطلع أولاً إليها ، وترك بيزنطة ؟!

أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، لم يحالفه التوفيق في الحكم على الحالة الدولية ، خسئ من قال هذا وكذب وافترى ، بل حالفه التوفيق في جميع مراحل حياته ، وأعماله كلها ، وخصوصاً عندما تولّى الخلافة ، لقد سير جيش أسامة بن زيد ، والعرب في ردتهم ، وهو بحاجة إلى هذا الجيش ، لكنه أراد إفهام من طمع بهذه الأمة إبادة وخسفاً - خصوصاً بعد سماعهم أنباء الردّة - أن هذه الأمة الفتية راسخة البنیان ، قويّة في ذاتها ، متينة رغم ردّة الأعراب ، فأفهم بيزنطة - كما أفهم الفرس أيضاً - أنه لو كان أمر الردّة أمراً جلاً ، لاحتفظت بهذا الجيش ، بل لو كان الأمر خطيراً ، وكان الجيش خارج الجزيرة لاستدعاه لتهدئة الأحوال الداخليّة .

واستطاع « نحيف بني تيم » القضاء على المرتدين ، فنقل العرب بالإسلام من جحيم مستعر أراده المرتدون ، إلى فردوس مزدهر أراده محمد رسول الله ﷺ .

وعندما فرغ من هذه الحروب ، قدّر الموقف الدولي بدقة ، وبشكل سليم صحيح ، فسير خالد بن الوليد من اليمامة إلى العراق سنة ١٣ هـ ، ولولم يجهز أبو بكر جيشاً - بل جيوشاً - إلى بيزنطة في السنة ذاتها ، لصح قول بروكلمان إلى حدّ ما ، ولكن في سنة ١٣ هـ ، جهّز أبو بكر الجيوش إلى الشام ، فسير عمرو بن العاص إلى فلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق ، وأبا عبيدة بن الجراح إلى حمص ، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن .

ألا يعلم بروكلمان أن اليرموك ، وهزيمة بيزنطة ، كانت قبل القادسية ؟.

ألا يعلم بروكلمان أن أبا بكر سَيَّرَ في عام واحد ، وهو عام ١٢ هـ ، الجيوش إلى الجبهتين البيزنطية والفارسية بآن واحد ، وتطلَّع إلى المشرق وإلى المغرب بآن واحد ؟ إن كان لا يعلم ذلك - وهذا نستبعده - فلا يصح أن يخطَّ حرفاً واحداً في تاريخنا ، وإن كان يعلم - وهذا نؤكِّده - ثم كتب ما كتب ، فهو بذلك يثبت عدم موضوعيته ، وعدم شموليته ، وبعده عن الجِدَّة ، وضياع من يعتمد أبحاثه أو يتكئ عليها .

ودليل آخر على التوفيق الذي حالف « نحيف بني تيم » في حكمه على الحالة الدولية ، وخصوصاً فيما يتعلق ببيزنطة ، أن عمر بن الخطاب سار على سياسة الصَّدِّيق ذاتها ، فبقيت جبهتان مفتوحتان في الشرق والغرب ، جبهة الفرس ، وجبهة بيزنطة ، ولو كان تقدير الصَّدِّيق خاطئاً لغير المسلمون استراتيجيتهم ، ولقد استمرت هذه الاستراتيجية الموفقة حتَّى أيام الأمويين ، جبهة شرقية وصلت السُّند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي ، وجبهة غربية بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير .

ودليل التوفيق ، أن هذه السَّياسة أوصلت المسلمين الفاتحين إلى قلب الصين ومنايع الفولغا ، وإلى قلب فرنسة ومنايع السَّين .

أمَّا أن أبا بكر قد بدأ بالجبهة الفارسية لضعفها البَيِّن منذ عهد غير قصير ، فهذا افتراء كرَّره المستشرقون المبشَّرون في كتاباتهم ، وردَّدته أبواقهم مثل : جرجي زيدان ، وفيليب حتَّى^(١) ، وافترأؤهم هذا يعني ، أن المسلمين الفاتحين انتصروا على دولتين واهيتين ضعيفتين .

(١) آراء يهدمها الإسلام ، ص ٦٣ وما بعدها .

ونقض هذا الافتراء ، أن المسلمين ما خافوا أعداءهم في جزيرتهم ، مع أنهم ما خاضوا معركة وكانوا فيها أكثر عدداً أو عتاداً من أعدائهم ، ورغم ذلك حققوا انتصاراتهم الرائعة الخالدة .

وفي اليرموك ، ما كانوا أكثر من الروم البيزنطيين ، ألا يكفي الروم أن مئة ألف عربي متنصّر كانوا معهم في المعركة ؟ .

هذا .. وترتيبات الفرس والروم عريقة ، وإمداداتهم وعتادهم عظيمان ، وهما يحاربان في أراضيها ، والمسلمون في أصقاع بعيدة عن عاصمتهم ، وإمداداتهم محدودة جداً ، لقد حاربوا دولتين كل واحدة منها أغنى منهم رجالاً ومالاً وخبرة ، ولماذا نقول إن الفرس والروم قد أنهكوا في المعارك ، ولا نقول إنها قد اكتسبتا فنوناً عديدة ، وخبرة كبيرة ، ومراساً طويلاً عبر حروبها ؟ فعندما خرج المسلمون فاتحين من جزيرتهم ، كان الروم يستصغرون شأنهم ، وكان الفرس يحتقرون قدراتهم ويسمونهم الجياع .

والنصر العسكري الرائع الذي حققه المسلمون في الجبهتين معاً لا قيمة كبرى له ، إذا قورن بانتصار العقيدة ، لقد استمرت حروب الفرس والروم فيما بينهما أربع مئة سنة دون حسم ، لأن حروبها لأطباع دنيوية ، ولما جاءت عقيدة الفاتحين المسلمين قلّت كل سلاح ، وتهاوت أمامها جيوش الفرس والروم ، لقد تبع النصر العسكري نصر في مجال العقيدة ، وهنا تكن عظمة الفاتحين المسلمين : ﴿ وَثَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى السَّيِّئِينَ اسْتَظْغِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ ، [القصاص ٦/٥] . ولو كره بروكلمان « الموضوعي » ، « العميق » .



« وخلف علياً أول الأمر ابنه الحسن ، ولم يكن الحسن هذا رجل الساعة ،

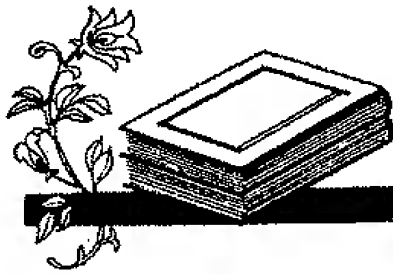
فلم يرتضِ أن يقود جنوده في هجوم على خصمه ، والواقع أنه آثر مفاوضة معاوية ، وتنازل عن حقّه في الخلافة ، على أن تُترك له خمسة ملايين درهم كانت في بيت المال بالكوفة » ، ص ١٢١ .

بل كان رجل السّاعة رضي الله عنه ، عندما حقن دماء المسلمين .

لقد رأى أنه لا ينبغي له أن يثق بمن حوله من أصحاب أو من جموع ، فقد خبرهم وعرفهم بما قاساه والده كرم الله وجهه منهم ، ومنذ بيعة الحسن ، ظهر عدم ميله إلى الخلافة^(١) ، فقد طفق يشترط على من بايع في العراق بقوله : « إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالت ، وتحاربون من حاربت » .

ثم قرّر رضي الله عنه التنازل لمعاوية ، وسمي عام ٤١ هـ عام الجماعة .

وعندما قام الحسين رضي الله عنه ، وسار إلى العراق أيام يزيد ، كان كما قال الفرزدق له : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أميّة ، وكما قال نفر من الكوفة : إنّ أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك . لقد رأى الحسن أباه والأعراب من حوله يخذلونه كلّما جاءت ساعة الفصل ، فأثر التنازل حقناً لدماء المسلمين .



(١) انظر : الطبري ٤٣٧/٥ ، والبداية والنهاية ١٤٩/٨ ، والكامل في التاريخ ٢٦٦/٣ ، وابن خلدون

افتراءات بروكلمان على العصر الأموي

وقال بروكلمان عن رفع المصاحف على رؤوس الرّماح للتحكيم في صفّين :
« إنّ هذه الحادثة قد تكون وهميّة » ، ص ١١٨ ، ثمّ تكلم عن التحكيم في أذرح في
ص ١١٩ .

والحقيقة تقول : عندما اقترب انتصار علي رضي الله عنه في صفّين ، ولاح
جليّاً واضحاً ، إذ بمعاوية يرفع المصاحف ويقول : تقبل ما في كتاب الله ليحكم
بيننا وبينكم . ويقول علي : ويلكم ، أنا أعلم ما في كتاب الله ، والله ما رفعتموه
إلاّ خوفاً منّي ، ثمّ أمر جنده بمتابعة القتال ، فقال أصحاب الفتنة : يدعوننا إلى
كتاب الله ، وتقاتل معك ؟!

وأفهمهم علي رضي الله عنه أنّ رفع القرآن خدعة ، « تخذلوني في هذه
اللّحظة » ؟ .

فقالوا : إن لم توقف بقيّة الجند في القتال ، لنقتلنك ونلحقك بعثمان^(١) ،
فأوقف القتال ، وأنفق الطرفان على التّحكيم .

وبروكلمان في ص ١١٩ يتكلم عن التحكيم ، وعن أبي موسى الأشعري ،
وعمر بن العاص ، ولكنه لتخبّطه ، لم يقل كيف أوقف القتال في صفّين ،

(١) الملل والنحل ، ص ١١٤

ولا كيف وصل ممثلاً الطرفَيْن إلى أذُوح^(١) .

وكيف يستطيع أن يقول كيف وصلاً إلى أذُوح ، ما دامت الموضوعيّة التي وُصِفَ بها ، بينها وبينه بعد المشرقَيْن ١٢؟ .

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان في ص ١٢٩ : « توفي يزيد في ١١ تشرين الثاني سنة ٦٨٢ ، صحيحٌ أنّه انصرف حتّى في عهد خلافته إلى الخمر والموسيقى واللّهو بأكثر مما انصرف إلى شؤون الدولة » .

ويقول في ص ١٥٢ : « والروايات المعادية للأمويين تصوّر يزيد الثاني ، كما صوّرت سمّيه يزيد الأوّل من قبل ، رجلاً مستهتراً ، انغمس في مناعم اللّهو والموسيقى ، وشغلته القيان والغنيات .. » .

هذا التناقض الذي وقع فيه بروكلمان في كلامه عن الخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية ، غني عن التعليق ، فكثير مما كتب عن يزيد ، روايات معادية للأمويين ، وهي من أغاليط المؤرّخين .

☆ ☆ ☆

« فالروايات الأسطوريّة تذهب إلى أن النّقد البيزنطي كان وحده المتداول في الإمبراطوريّة العربيّة » ، ص ١٣٤ .

لم تقل مصادرنا العربيّة إنّ النّقد البيزنطي كان وحده المتداول في الإمبراطوريّة العربيّة ، لقد كان النّقد البيزنطي هو المتداول في بلاد الشّام

(١) أذُوح : بلد في أطراف الشّام من أعمال الشّراة ، ثمّ من نواحي البلقاء ، معجم البلدان ١٢٩/١

ومصر ، والنقود الفارسي هو المتداول في العراق ، والنقود العربي هو المتداول في مناطق عديدة في الجزيرة العربية .

وتقول المصادر : وأول من سك النقود العربية ، وجعل استعمالها إجبارياً ، هو عبد الملك بن مروان^(١) .

ويذكر المقرئ أن أول من ضرب النقود في الإسلام عمر بن الخطاب سنة ١٨ هـ ، على مثال النقود الفارسية ، وأصدر عثمان بعده دراهم منقوشاً عليها « الله أكبر » .

مع كل هذا .. نرى بروكلمان يثير قضية ، ويجعل من الخبر مسألة يثار حولها النقاش .



« وفي عهد عبد الملك تعذر على أتباعه الحج إلى الكعبة ، بسبب استيلاء منافسه في الخلافة ، عبد الله بن الزبير على مكة ، فحاول أن ينشئ في القدس بدلاً من البيت الحرام ، وهناك على الصخرة المقدسة التي استنَّ عمر نفسه الصلاة عندها ، يوم دخل بيت المقدس ، شيّد عبد الملك ما يدعى قبة الصخرة » ، ص ١٤٠ .

لقد ردّد هذا الكلام فيليب حتّي في كتابه « تاريخ العرب المطوّل^(٢) » ،

(١) عبد الملك بن مروان : [٢٦ - ٨٦ هـ = ٦٤٦ - ٧٠٥ م] ، تولى الخلافة سنة ٦٥ هـ ، فضبط أمورها ، وظهر بمظهر القوة « فكان جباراً على معانديه ، قوي الهيبة ، ثقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية ، وضبطت الحروف بالنقطة والحركات ، وهو أول من سك الدينار في الإسلام ، وأول من نقش بالعربية على الدراهم ، الأعلام ١٦٥/٤

(٢) ص ٣٣٢ حيث قال : « وقد دعاه إلى بنائها عزمه على صرف الحجّاج عن مسجد مكة » .

ورددّه غيره أيضاً . وفنّدنا هذا الكلام في كتابنا « فيليب حتّي »^(١) ، ومجمل القول في هذا الموضوع :

- ١ - لم يلاقِ أهل الشام عناءً في الحجّ إلى مكّة أيّام ابن الزُبَيْر .
٢ - ولم يجبر ابن الزُبَيْر أحداً على مبايعته ، وكان يتركهم - كما روى وذكر المؤرّخون - يأتئون في صلاتهم بإمام منهم .
٣ - وحديث رسول الله ﷺ : « لا تشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس » ، يشير إلى مسجد بيت المقدس ، إلى المسجد الأقصى ، والمسجد الأقصى غير الصّخرة ، والحجّ إلى مكّة ، إلى الكعبة ، ولا يغني عن ذلك مسجد الرّسول ﷺ في المدينة المنورة ، ولا المسجد الأقصى في بيت المقدس ، فالحديث الشّريف لا يضع المسجد الأقصى موضع البديل عن المسجد الحرام الّذي نصّ القرآن الكريم صراحة إلى فرض الحجّ إليه ، وحرّم الصّد عن سبيله .

٤ - وليس من المعقول أن يأخذ عبد الملك نفسه بشبهة الكفر ويصدّ النّاس عن سبيل الحجّ إلى بيت الله الحرام .

٥ - انفرد اليعقوبي بذكر الحج إلى القدس : « وهذه الصّخرة الّتي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لمّا صعد إلى السّماء ، تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصّخرة قبةً ، وعلّق عليها ستور الدّيباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ النّاس يطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة ، وأقام بذلك أيّام بني أميّة » ، ولم يشر المؤرّخون المعاصرون له مثل ابن الفقيه ، والبلاذري ، والطّبري .. إلى ذلك ، وهذا ممّا يقوّي الشّك في الرّواية كلّها .

٦ - وبناء قبة الصّخرة نفسه ، لم يُعدّ إعداداً صالحاً لطواف الحجّاج كما

(١) ص ١٩٦ وما بعدها .

يطوفون حول الكعبة^(١) ، فإنه من جهة محصور في جدران غليظة ، وأبوابه الأربعة من جهة أخرى ضيقة لا تسمح بدخول أفواج من الناس وخروجهم في يسر وحرية وهم على هيئة الطواف ، وكذلك فإنه يحيط بالصخرة رواقان ، ولو كان القصد من البناء تيسير الطواف ، لجعل له رواق واحد ، أو ساحة واحدة تحيط بالصخرة ، ثم إن هذين الرواقين ضيقان من جهة ، غير متساويين اتساعاً من جهة أخرى ، ولهذا فإن تصميم البناء نفسه يؤكد عدم تخصيصه للطواف .

فلماذا بنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة إذن ؟
إن قبة الصخرة بُنيت تخليداً لذكرى الإسراء .

أو بُنيت خشية أن تعظم في قلوب المسلمين الكنائس السامقة ، وأن يبهرم مظهرها ، فبنى عبد الملك على الصخرة قبة مشرقة متألثة ، ويروي المقدسي أنه لم يَر في الإسلام ، ولا سمع في الشرق مثلها^(٢) .

وإضافة لما سبق ، أراد عبد الملك أن يؤكد للمسيحيين واليهود ، انتصار الإسلام الذي ثبت أقدامه في مدينة القدس ، بإقامة بناء إسلامي بارز ظاهر .

إن اليهود كانوا يزورون الصخرة باعتبار أنها كانت الموضع الذي هم عليه إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ، وكانت الموقع الذي جرت عليه أحداث الفداء ، وكانت هذه الزيارات تزعج المسلمين وتقلقهم وتضايقهم في إقامة صلاتهم على الحرم الشريف ، وفي المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمام الصخرة ، فأراد عبد الملك بإقامة بنائه حفظ الصخرة من عبث اليهود .

ويرجح الباحثون أيضاً حرص عبد الملك بن مروان على تخليد ذكرى أولى

(١) انظر : عالم الفكر ، المجلد الحادي عشر ، العدد الأول سنة ١٩٨٠ م ، قبة الصخرة ، ص ١٣ ، مقالة د . أحمد فكري .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٥٩ ، ١٧٠ ليدن ط ٢ ، سنة ١٩٠٦ م .

الْقِبْلَتَيْنِ ، ويؤيد هذا الرأي تصميم البناء نفسه ، فهو بناء ليس على نظام المساجد ، فلا يصلح أن يجتمع فيه المسلمون للصلاة ، وهو كذلك لا يصلح للطواف ، وروعي في هذا البناء أن يكون مزاراً فحسب ، وقد صُمم البناء بحيث يتسع الرواق المحيط بالصخرة ليستوعب أكبر عدد من الزوّار ، وهذه هي الحكمة في زيادة اتساعه زيادة ملحوظة عن الرواق الأول الملاصق للأبواب ، والذي يقتصر استخدامه على دخول هؤلاء الزوّار وخروجهم ، فكان البناء معرض مخصّص لعرض تحفة ثينة مع الحفاظ عليها ، ولهذا أيضاً روعي أن تكون فخامته وعظمته بقدر قيمته ، هذا الكنز الذي يضمّه بين أجنحته ، وهل هناك بعد الكعبة والروضة الشريفة كنز أكثر قدسيّة من القِبْلَةِ الأولى ؟

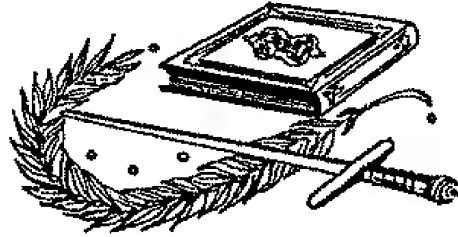
وعبد الملك كما قال الجاحظ : « سنان قريش ، وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعاً وزهداً » ، إنه من السّابعين ، احتجّ مالك في الموطأ بأحد أعماله ، حفظ الحديث الشريف عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وسمع من أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ، وجابر بن عبد الله وغيرهم من أصحاب رسول الله ، فلا يعقل أن يتجاوز حدود الله تعالى .

هذا هو محل القول في موضوع بناء عبد الملك لقبة الصخرة ، والتي يدّعي بروكلمان : « ألتي استنّ عمر نفسه الصلّاة عندها يوم دخل بيت المقدس » ، مع أن الطّبري [٦١١ / ٣] يذكر قول عمر بجلاء ودون مواربة : « إنا لم نوامر بالصخرة ، ولكنّا أمرنا بالكعبة » ، وعندما صلّى عمر صلّى في المسجد الأقصى^(١) ، ثم جاء إلى الصخرة ، فاستدل على مكانها ، وكما يقول ابن كثير في البداية والنهاية [٥٦ / ٧] : وبني المسجد المعروف بالعمري اليوم ، ثم نقل

(١) المسجد ، مكان العبادة ، أي مكان يسجد فيه الله سبحانه ، جاء في سورة الكهف ٢١ : ﴿ لَتَتَغَيَّنَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ . فالمسجد الأقصى عند الإسراء وعند فتح بيت المقدس سنة ١٥ هـ ، مكان للعبادة ، يسجد الله فيه .

التراب عن الصخرة ، في طرف رداءه وقبائه ، ونقل الماسون معه في ذلك ،
« وقد كانت الروم جعلت الصخرة مزبلة لأنها قبله اليهود » .
« فالموضوعي » بروكلان ، أراد أن يثبت ادعاءه ، فربطه بحادثة تاريخية ،
فأخطأ مرتين ، وجاء الربط مثبتاً خطأه في الأولى والآخرة .

☆ ☆ ☆



افتراءات بروكلمان

على العصر العباسي

وقال بروكلمان عن الخلفاء العباسيين : « ولكنهم تصرفوا فيما يتصل بالموت والحياة مباشرة ، فقد كان الجلاد - وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية قبل ذلك العهد - يلزم الخليفة دائماً ، وكان النّطع حاضراً أبداً قرب العرش ، لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها » ، ص ١٧٩ .

هذا التّعميم مرفوض تاريخياً وواقعياً ، ولنرّ مثالين اثنين من خلفاء بني العباس ، هما المنصور^(١) والرّشيد^(٢) كمثالين لعصر القوّة ، وقمّة الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، والتي تمثّلت في الخلفاء العشرة الأوّل .

المثال الأوّل :

١ - من مواعظ أبي جعفر المنصور لابنه المهدي : « يا أبا عبد الله ، إن الخليفة لا يصلحه إلاّ التقوى ، والسّلطان لا يصلحه إلاّ الطّاعة ، والرّعيّة لا يصلحها إلاّ العدل ، وأوّل الناس بالعدل أقدرهم على العقوبة ، وأنقص النّاس عقلاً من ظلم من هو دونه »^(٣) .

(١) عبد الله بن محمد بن علي ، أبو جعفر المنصور ، الخليفة العباسي الثاني : ١٣٦ - ١٥٨ هـ .

(٢) أبو جعفر هارون الرشيد بن المهدي ، الخليفة العباسي الخامس : ١٧٠ - ١٩٣ هـ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، المجلّد الثامن والثلاثون ، ص ٢١٦ ، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

وقال له أيضاً : « أي بني ، ائتمم^(١) النعمة بالشكر ، والمقدرة بالعفو ، والطاعة بالتآلف ، والنصر بالتواضع والرحمة للناس »^(٢) .

٢ - وقال رجل : « كنا عند أمير المؤمنين المنصور ، فدعا برجلي ، ودعا بالسيف ، فأخرج المبارك - بن فضالة - رأسه في السباط^(٣) ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سمعت الحسن يقول : قال رسول الله ﷺ - فلما سمعه المنصور يقول : قال رسول الله ﷺ أقبل عليه بوجهه يسمع منه ، فقال : قال رسول الله ﷺ - : « إذا كان يوم القيامة قام منادي من عند الله ينادي : ليقيم الذين أجرهم على الله ، فلا يقوم إلا من عفا » .

فقال المنصور : خلّوا سبيله ، ثم أقبل على جلسائه يخبرهم بعظيم جرمه ، وما صنع »^(٤) .

٣ - ولما جاء قطن بن معاوية إلى المنصور معترفاً بذنبه ، قال : « يا أمير المؤمنين ، أنا قطن بن معاوية ، قد والله جهدتُ عليك جهدي^(٥) فعصيت أمرك ، وواليت عدوك ، وحرصتُ على أن أسلبك ملكك ، فإن عفوت فأهل ذاك أنت ، وإن عاقبت فبأصغر ذنوبي تقتلني »^(٦) .

فسكت المنصور هنيئة ، ثم قال : هيه ! فأعاد قطن مقالته ، فقال المنصور : فإن أمير المؤمنين قد عفا عنك .

(١) الإدام معروف ما يؤتم به مع الخبز ، فكأنه أراد أن الشكر يصلح النعمة كما يصلح الإدام الخبز ، وفي الوزراء والكتاب ١٣٦ ، والبداية والنهاية ١٠/١٢٣ : « استدم » ، وهي أقرب للصواب ، المرجع السابق ، حاشية ص ٢١٨

(٢) المرجع السابق « ابن عساكر » ٢٨/٢١٨

(٣) كل صفة من الرجال : سباط ، والسباط : الجماعة من الناس . (اللسان : سمط) .

(٤) ابن عساكر ٢٨/٢١٩ ، وقاربخ بغداد ١٣/٢١٢ ، البداية والنهاية ١٠/١٢٣ ، العقد الفريد ٢/٦٠

(٥) الجهد : بلوغ غاية الأمر الذي لا تألو على الجهد فيه ، تقول : جهدتُ جهدي .

(٦) ابن عساكر ٢٨/٢٢٠

٤ - وأُتي المنصور برجلٍ يعاقبه على شيءٍ بلغه عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الانتقام عدلٌ ، والتجاوز فضلٌ ، ونحن نعيذُ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين ، فعفا المنصور عنه^(١) .

٥ - وكتب أبو جعفر إلى سَوَّار بن عبد الله قاضي البصرة : انظر الأرض التي يخاصم فيها فلان القائد ، فلان التاجر ، فادفعها إلى فلان القائد .

فكتب إليه سَوَّار : إِنَّ البَيِّنَةَ قد قامت عندي أَنَّها لفلان التاجر ، فلست أَخْرِجُها من يديه إِلَّا بَبَيِّنَةٍ ، فكتب إليه أبو جعفر : والله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لتدفعنَّها إلى فلان القائد .

فكتب إليه سَوَّار : والله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا أَخْرِجْتُها من يدي فلان التاجر إِلَّا بِحَقٍّ !

فلما جاءه الكتاب قال أبو جعفر : ملأَتْها والله عدلاً ، صار قَضَاتِي يردُّونِي إلى الحقِّ^(٢) .

في القِصَّة الأولى وعظ المنصور ابنه وأوصاه بالعدل ، ومن العدل ألا يَقْتُل بريء ، وألا تزر وزارة وزر أخرى ، وفي القِصَّة الثانية عفا المنصور عن خارج عن القانون ، قد جاء معترفاً مقرراً بذنبه ، وعقوبة الخارج عن القانون معروفة في كلِّ أرجاء العالم قديماً وحديثاً ؟!

وهذا ما كان أيضاً مع قَطَن بن معاوية ، الَّذِي والى عدوَّ المنصور ، وحرص على أن يسلبه ملكه . لقد كانت شِية المنصور العفو والصفح لا الجلاد والنُّطع .

(١) تاريخ مدينة دمشق ، المجلد ٢٨ ، ص ٢٢١

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٧

وفي القصة الرابعة ، تجاوز المنصور ، وقبل الإحسان ، لا العدل .

وفي القصة الخامسة ، ملأ دولته عدلاً « وصار قضاتي يردوني إلى الحق » .

فالجلاّد والنّطع حاضران قرب العرش لا لقتل بريء لا ذنب له ، ولا لاستئصال الرؤوس المغضوب عليها لهوى في النفس ، النّطع لا يحمل الجلاّد إلاّ بعد محاكمة وإقرار ، وتحجّر للعدل ، مع فرصة للدّفاع واستجلاء الحقيقة .

المثال الثاني :

هارون الرّشيد^(١) ، الذي كان مضرب المثل في العدل ، والذي كان في قلبه توازن عجيب بين العصف بالعدو ، وبين العطف على الرّعيّة ، وهذا التّوازن يشبه توازنه بين سمره البريء الطاهر العفيف ، وبين إيمانه وورعه والتزامه بإسلامه .

والمتّهم عنده يسوق حججه على أعلى مستوى يتصوّره دفاع عن متّهم ، في حضرة خليفة يُحسِن الاستماع ، بوجود قاضي هو أعظم أهل الأرض علماً يومذاك ، أبو يوسف^(٢) ، ومن بعده محمّد بن الحسن الشّيباني .

فلم يرق الرّشيد دماً إلاّ إذا أدانت الأدلّة صاحبه ، وكان دأبه أن يضرب بشدّة ، لكن العدل كان شأنه في كل حكم ، والمتصفّح لتاريخ الرّشيد ، يلمس بوضوح أنّه ما أمر بقتل إنسان إلاّ في حالات ثلاث^(٣) :

أ - زنديق يعلن كفره ، ويجاهر به ، ويستخف بقيم الآخرين ، ويسخر منها ، وهذا ما رآه الرّشيد أيام أبيه المهدي المشهور بعدله وتقواه ، لقد كان لوزير المهدي « معاوية بن يسار » ابن زنديق ، فدعا المهدي الولد ووالده ، وسأل

(١) مرت بمحاشية سابقة فترة خلافته .

(٢) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب ، تلميذ أبي حنيفة ، قاضي القضاة أيام الرّشيد .

(٣) انظر : هارون الرّشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ، ص ٤٤

الولد عن شيء من القرآن الكريم ، فلم يتمكن من تلاوة بعض الآيات ، قال المهدي : ألم تخبرني أن ابنك حفظ القرآن ؟ قال الوزير : بلى ، ولكن فارقني منذ مدة فَنسيه ، قال المهدي : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام الأب فعثر ووقع وارتعد ، فأمر المهدي بعض الحضور بقتل الزنديق ، فضرب عنقه .

حدث محمد بن عيسى بن يزيد الطرسوسي ، قال : سمعت خرزاد القوائد يقول : كنت عند الرشيد ، فدخل أبو معاوية الضير وعنده رجل من وجوه قریش ، فجرى الحديث إلى أن خرج أبو معاوية إلى حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة : « أن موسى لقي آدم فقال : أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة ! » ، وذكر الحديث ، فقال القرشي : أين لقي آدم موسى ؟ .. قال : فغضب الرشيد وقال : النطع والسيف ، زنديق^(١) والله يطعن في حديث رسول الله ﷺ ، قال : فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول : كانت منه بادرة ، ولم يفهم يا أمير المؤمنين^(٢) ، حتى أسكنه^(٣) .

٢ - ومسلم تبيح الشريعة قتله في إحدى حالات ثلاث ، مصداقاً لقول النبي ﷺ : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »^(٤) .

٣ - وثائر يهدف قلب نظام الحكم ، يشيع الفوضى والدُّعْر والقتل والفتك ، بدل الأمن والطمأنينة .. وهذا تقرُّه الدُّول قديماً وحديثاً ومستقبلاً ، إنه قانون

(١) الزندقة : فارسية معربة . نسبة إلى زند ، وهو كتاب يفتر كتاب الأفستا المجوسي ، وتطلق على من يبطنون الكفر .

(٢) أن اللقاء : لقاء أرواح .

(٣) تاريخ بغداد ٥/١٤ ، البداية والنهاية ٢١٤/١٠ ، تاريخ الموصل ٢٩٤ ، تاريخ الخلفاء ٢٨٥

(٤) رواه البخاري ومسلم .

السُّلطة في كل زمن : الدِّفاع عن النَّفس والدَّولة ، وهذا إما أن يُقتل في مواجهة
حربيَّة عسكريَّة ، وإما بإلقاء القبض عليه ومحاكمته علناً ، مع دفاع كامل بحضور
قاضي القضاة . ومثال ذلك :

ظهر في الموصل سنة ١٨٠ هـ العطَّافُ بن سفيان الأزدي ، فخرج إليه
الرَّشيد ، فانسحب العطَّاف بأربعة آلاف إلى أرمينية ، ولما وصل الرَّشيد الموصل ،
همَّ أن يبطش بأهلها الموالين للعطَّاف ، ولكن العباس بن الفضل ، وكان فقيهاً
محدثاً خرج إلى الرَّشيد مع موسى بن المهاجر ، وكان من أصحاب الثوري ومحدثاً
فقيهاً أيضاً ، وخرج أيضاً سعد الفقيه ، وعتيق الفقيه وغيرهم .. فتوسَّطوا في
الأمر مع أبي يوسف القاضي ، فأشار عليهم إذا جنَّ اللَّيل أن يصعد النَّاسُ على
سطوحهم ، ويجهروا بالأذان لعشاء الآخرة ، ففعلوا ذلك ، وسمع هارون الرَّشيد
كثرة الأذان والضجَّة ، فقال لأبي يوسف : ما هذا ؟ قال : أذان يا أمير المؤمنين ،
قال : ويحك ، هؤلاء مؤذنون ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، القوم مسلمون ،
وفيهما أهل الصَّلاح وقُرَّاء القرآن ^(١) ، وأهل علم وفقه .

فاكتفى الرَّشيد بهدم سور المدينة ، ونادى مناديه : من هدم ما يليه من
السُّور فهو آمن ، فهدم النَّاس سورهم بأيديهم ، ونادى المنادي : آمِنَ الأسود
والأبيض إلا العطَّاف بن سفيان ، وعبد العزيز بن معاوية ، والمعافي بن
شريح ، وببرويه الرَّحبي ، ويعلى الثَّقفي .

ولما أُلقي القبض على المعافي ، قال له الرَّشيد : أنتَ المعافي ؟

قال : إنَّك المعافي يا أمير المؤمنين ، وأنا المبتلى بذنوبي .

(١) لاحظ أن الرَّشيد أقسم على البطش بهم عندما علم أنَّهم مارقون ، ولما تأكَّد من صلاحهم وعلمهم
وفقههم تركهم وشأنهم ، فلم يهدر دم مسلم ، أو غير مسلم ، إلاَّ بحق وتحقيق وإدانة .

الرّشيد : هاتِ بيرويه ومنتصر .

المعافى : ما أقدر عليها .

الرّشيد : برئت من المهدي ، ومن قرابتي لرسول الله ﷺ إن لم أقتلك .

المعافى : يا أمير المؤمنين ، أنا شيخ وفي رقبي وصايا وأطفال ، فتهلني حتّى أخرج الوصايا التي في عنقي وأوصي .

الرّشيد : أمهلتك إلى الليل .

قال المعافى : فوجّهت إلى اليانّة وسطاء وشفعاء لدى الخليفة ، كالحسن بن قحطبة ، وعبد الله بن مالك الخزاعي ، وحمزة بن مالك الخزاعي وغيرهم .. فركبوا إليه فاستوهبوني منه ، قال : فلا بُدّ من حبسه سنّة ، فخيروني أين أحبس ، فاخترت الحبس بالموصل ، وأن أطلق بعد سنة بغير استئثار ، فأمر بذلك^(١) .

ولما سخط الرّشيد على عبد الملك بن صالح لحياتته وعزمه على الغدر بالمسلمين ، أحضر الرّشيد الشّهود على ذلك^(٢) ، ثم قال : أما أمرك فقد وضح ، ولكنني لا أعجل عليك حتّى أعلم الذي يرضي الله فيك ، فإنّه الحكم بيني وبينك .

قال عبد الملك : رضيت بالله حكماً ، وأمير المؤمنين حاكماً ، فيأني أعلم أنّه يؤثّر كتاب الله على هواه .

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، فدخل عبد الملك ، فسلم ، فلم يرد عليه الرّشيد ، فقال عبد الملك : ليس هذا يوم أحتج فيه ، ولا أجاذب منازعاً .

(١) تاريخ الموصل ٢٨٠ ، الأخبار الطوال ٣٩٠ ، تاريخ ابن الوردي ٢٨٠/١

(٢) كان والياً على الموصل ، وقرر العصيان والغدر بالرّشيد .

قال الرّشيد : لِمَ ؟ قال : لأنّ أوّله جرى على غير السُّنة ، فيأنّي أخاف
آخره ، قال الرّشيد : وما ذلك ؟ قال : لم ترد عليّ السّلام ، أنصف نصفه العوام .
قال الرّشيد : السّلام عليك اقتداء بالسُّنة ، وإيثاراً للعدل ، واستعمالاً للتّحيّة .

وهكذا .. إن صفّق الرّشيد وقال : السّيف والنّطع يا غلام ، فهذا يعني بعد
محاكمة بكل ما في الكلمة من معنى ، وبعد إدانة ضمن حدود الشريعة .

فتعميم بروكلمان مرفوض ، والنطع الحاضر أبداً قرب العرش لاستقبال
الرؤوس المغضوب عليها ، كان يستقبلها بعد محاكمة نزيهة عادلة ، بكل ما في
العبارة من معنى .



ويقول بروكلمان عن سبب نكبة البرامكة^(١) : « وتعزو الروايات سبب
الخلاف الأخير إلى حادثة غرامية حصلها أن الخليفة - الرّشيد - عقّد لجعفر على
أخته العباسة صوريّاً ، حتّى يكون في ميسوره أن يأنس بالاجتماع بهما في وقت
معاً ، ولكن جعفر أساء اصطناع هذه الحرّية التي تمت له .. » ، ص ١٨٧ .

إن رواية زواج العباسة الصوري من جعفر ، رواية منقوضة على محكّ
البحث الموضوعي ، وفصلنا ذلك في كتاب « هارون الرّشيد أمير الخلفاء وأجل
ملوك الدّنيا » .

لقد كانت نكبة البرامكة نكبة جماعيّة ، وهلاك جماعي ، فهي لا بد عقاب
على فعل جماعي ، خطّط له ، لكنه لم يتم ، فالرّشيد كما قلنا في الفقرة التي
سبقت ، لم يرق دماً يوماً ، ولم يسجن شخصاً في أيّ يوم ، إلّا لسبب يقرّه الدّين
والعقل والمنطق السّليم ، فمن باب أوّلى ألاّ يُنكّل بجماعة ، بسبب ظن ، أو بسبب

(١) كانت نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ ، فقتل الرّشيد جعفر ، وحبس يحيى في الرّقة إلى أن مات .

إساءة فردية من أحد أفرادها ، لقد نكبهم الرشيد للأسباب التالية :

- ١ - لأنهم أظهروا إسلاماً ، وفي نفوسهم مجوسية .
- ٢ - ولأنهم كانوا يميلون إلى فارسية كسروية .
- ٣ - ولمايتهم الثقافة الفارسية بجاههم ، وبالأموال التي وُضعت بين أيديهم ، ولنشرها بما لهم من جاه وسلطان .
- ٤ - ولأنهم آووا كثيرين ممن اتهموا بالزندقة ، كمحمد بن الليث الخطيب ، وهشام بن الحكم الرافضي ، لقد هالمهم قوة الدولة العباسية خصوصاً وقد انتقل الحكم من الأمويين إلى العباسيين ، ونفوس الفرس تطمع إلى حكم فارسي في المظهر والمضمون ، في اللغة والتراث ، لذلك شجعوا المانوية والزردشتية والمزدكية بحجة حرية الرأي .

٥ - ونكبهم الرشيد لمضاهاتهم له ، وإطلاق سراح يحيى بن عبد الله بن الحسن الطالبي ، الذي دعا إلى نفسه ، فبايعه أهل الحرمين واليمن ومصر .. ولما قصد بلاد ما وراء النهر ، اشتد الرشيد في طلبه ، فانصرف إلى خاقان ملك الترك ومعه شيعته ، ثم عاد إلى طبرستان ، فبلاد الديلم سنة ١٧٥ هـ ، فكثر جمعه ، فندب الرشيد لحربه ، فضعف أمر يحيى مما جعله يطلب الأمان من الرشيد ، فأجابه بخطه ، واستقدمه إلى بغداد ، وأغدق عليه الرشيد عطايا ، إلى أن بلغه أنه يدعو لنفسه سراً ، فحبسه عند الفضل بن يحيى ، فأطلقه الفضل ، وعلم الرشيد ، فأرسل من أعاده إلى الاعتقال ولم يقتله رغم هربه ، وكان كثيراً ما يدعو به إليه فيناظره ، واستمر إلى أن مات في محبسه .

فإطلاق سراح يحيى يدل على بدء ترك مشورة الرشيد وتجاوزه ، والبت والأمر والنهي دون الرجوع إليه ، بل ومخالفة أمره . فقد أطلق البرامكة سراح يحيى ووجهوا معه من أوصله إلى بلاده ، دون علم الرشيد .

واستعمل أكثر من مؤرّخ عبارة « دولة البرامكة » ، كالمسعودي ٢٩٨/٦ ،
والفخري ١٩٧ ، وفعلاً .. فقد أصبحوا دولة ضمن دولة ، ولم يكن الرّشيد ذلك
الخليفة السّاذج البسيط ، ليدع لهم الحبل على الغارب .

٦ - واصطنع البرامكة الأموال لأنفسهم من دونه ، حتّى كان يحتاج إلى
اليسير من المال فلا يقدر عليه .

لما سبق .. نكب الرّشيد البرامكة ، والسّبب « إساءة استعمال السّلطة » .
وأسطورة (العبّاسة) مع (جعفر) من اختراعهم ، روجوا لها ، لطمس
معالم حركتهم .

☆ ☆ ☆

ويقول بروكلمان في ص ١٩٢ : « الشّعوبي : أي المدافع عن تساوي الأمم في
الحقوق » .

لا أدري كيف فهم الباحث والمؤرخ والعالم الكبير « كارل بروكلمان » هذا
المعنى من كلمة « الشّعوبي » ، والتي هي في غاية الأهميّة في التّاريخ العربي
الإسلامي ، وفي الأدب العربي أيضاً ، فكثير من الحوادث لا تفهم إلا بمعرفة معنى
« الشّعوبي » . فإذا ببروكلمان « المؤرخ العظيم » يورد تعريفاً لم يجعل له سنداً
من الواقع : « الشّعوبي : أي المدافع عن تساوي الأمم في الحقوق » ، فهل كانت
« الشّعويّة » في تاريخ العرب وأدبهم تحمل هذا المعنى ؟ خصوصاً وأن الإسلام قد
حمل للعرب وغيرهم معنى المساواة بين البشر ، شعوبهم وقبائلهم ، أبيضهم وأسودهم
قويّهم وضعيفهم ، وجعل التّفاضل بينهم لا بالدم ، ولا باللّون ، بل بالعمل
الصالح والتقوى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٣] .

ولا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود .. و « سلمان منا أهل البيت » .

الشُّعوبي .. هو الذي لا يكتفي بإظهار مفاخر أُمته ، بل يحمل على أمة العرب ، ليكشف عما يزعمه من نقائص فيها ، وفي « لسان العرب » الشُّعوبي : « الَّذِي يَصْغُرُ شَأْنُ الْعَرَبِ ، وَلَا يَرَى لَهُمْ فَضْلًا عَلَى غَيْرِهِمْ » ^(١) .

ومثال الشعوبيين ، الشاعر الشهير أبو نواس « الحسن بن هانئ » ^(٢) ، الَّذِي لم يخفِ حقه على العرب ، فأخذ يشتمهم ، ويلصق فيهم من التُّهم والعيوب ، ما يكشف به عن حقيقة كرهه لهم ، وحقه عليهم ، فتظهر الشعويّة لا المساواة في قوله :

عاج ^(٣) الشَّقِيُّ عَلَى رَئْسٍ ^(٤) يسأله وعجت أسأل عن خسارة البلدي
يبكي على طَلَلِ المَاضِينَ مِنْ أَسَدٍ لادرُّ درك قل لي من بنو أسدٍ ؟
ومن تميم وقيس ولفهما ؟ ليس الأعاريبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
لا جفَ دمعَ الَّذِي يبكي على طَلَلٍ ولا صفًا قلبٌ من يصبو إلى وتدٍ

فهل هذا القول دعوة لتساوي الأمم في الحقوق ؟

☆ ☆ ☆

وفي ص ١٩٩ ، يقول بروكلمان بهزء واستخفاف لا يليقان بمؤرخٍ « كبير » ،

(١) انظر اللسان مادة « شعب » ٤٩٧/١

(٢) الحسن بن هانئ بن عبد الأوّل بن صباح الحكيم بالولاء ، ولد في الأهواز سنة

١٤٦ هـ = ٧٦٣ م ، وتوفي في بغداد سنة ١٩٨ هـ = ٨١٤ م .

(٣) عاج يَعُوج إذا عطف ، اللسان « عوج » .

(٤) الرَّئْسُ : الأثر ، وقيل : بقية الأثر ، اللسان « رسم » .

وصفه بعضهم « بالموضوعية والعمق والشمول والجِدَّة » : « فالواقع أن المأمون انطلق في سبيله إلى طُوس^(١) مباشرة ، ليستمد القوة من طريق الصَّلَاة على ضريح أبيه الرُّشيد » .

ليس من عيب في المأمون ، ولا في غيره ، إذا أراد أن يستمد القوة من الله بصلاة وعبادة ، أكانت تلك الصَّلَاة قرب ضريح أبيه ، أو لم تكن ، وفي تاريخ الشرق والغرب أمثلة كثيرة ، وشواهد عديدة لقادة وحكام حاولوا أن يستمدوا العون والقوة من الله ، ووجهوا جنودهم ورعيّتهم إلى ذلك مما يزيد في رفع معنوياتهم ، وطاقاتهم الروحيّة .

لكن العيب كل العيب أن ينحدر مؤرخ صاحب شهرة ، وكاتب « كبير » إلى هذا الدُّرْك من الأسلوب البعيد عن أخلاق العلماء ، ليغمز من جانب خليفة أجمعت الدنيا على مكانته ، وخصوصاً في مجال العلم وتقدير العلماء ، مما أدى بذلك إلى تقدّم الحضارة الإنسانيّة .

لقد استمد المأمون - الخليفة العالم - القوة بعد الله عزّ وجلّ من العلم ، وأسس

(١) طوس : مدينة بالقرب من مدينة نيسابور ، وفي مروج الذهب للمسعودي ٢٤٧/٣ : « ومات - الرُّشيد - بطوس بقرية يقال لها سناباد يوم السبت لأربع ليالٍ خلّون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومئة » .

وفي البداية والنهاية ٢٢١/١٠ ، والنجوم الزاهرة ١٢٢/٢ قال الرشيد عند احتضاره :

| | |
|------------------|-----------------|
| إني بطوس مقيم | مسا لي بطوس حيم |
| أرجو إلهي مساي | فإنّسه بي رحيم |
| لقد أتى بي طوساً | قضاه المخبوم |
| وليس إلا رضائي | والصبر والتسليم |

وفي معجم البلدان ٤٩/٤ تحت كلمة (طوس) : - وفي بعض بساتينها قبر علي بن موسى الرضا ، وقبر الرُّشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل عظيم محكم البناء لم أر مثله علو جدران وإحكام بنيان » .

بنيان دولته على صرح من العلم سامقٍ ، وأعطى دروساً في التاريخ لكل حاقِدٍ ومتعصّبٍ بما كان يقوم به من جمع العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ومشاربهم .. ليكون بينهم الحوار والنقاش لبناتٍ في بناء « المنهج العلمي في البحث » ..

ومع ذلك .. يهزأ بروكلمان « الموضوعي - العميق - المتّصف بالشمول والجِدّة » بالمأمون .



« والواقع أن الجهود الرُّوحِيَّة انصرفت ، أكثر ما انصرفت خلال القرنين الأولين للإسلام ، إلى محاولة التّوفيق ما بين المثل اللّاهوتيَّة القائمة على أساس القرآن والسُّنة من ناحية ، والحقيقة من ناحية ثانية » ، ص ٢٠٤ .

ليت كاتبنا ومؤرخنا « الكبير » أوضح عمّا يقصد إليه في كلامه هذا بأمثلة ، فكيف بذلت الجهود الرُّوحِيَّة للتّوفيق بين المثل اللّاهوتيَّة الإسلاميَّة ، وبين الحقيقة ؟ .

فهل وجد صاحبنا « الموضوعي » فروقاً واسعة ، وهوة كبيرة بين مثل الإسلام والحقيقة ؟ .

الإسلام - ولا أعتقد أن بروكلمان يجهل ذلك - يتّفق مع الفطرة الإنسانيَّة ، فهو كما عرفه الجميع ، دين الفطرة ، لأنّ مثله وتعاليمه - خلاف معظم العقائد الأخرى - متّفقة مع حقائق العلم ، ومع موجودات الكون وقوانينه ، ولقد درسنا التاريخ العربي الإسلامي ، فما رأينا جهوداً تبذل إلّا لإعادة الإنسان إلى فطرته ، وإلى أن يعي حقيقة نفسه ووجوده .

وليت مؤرخنا - المتّصف بالعمق والشمول والجِدّة - ما زال حيّاً ، ليقرأ ما كتبه

ويكتبه بعض المنصفين من علماء الغرب ، الذين أراحوا عن عيونهم غشاوة التعصب والحق ، وأبدلوا بها نور العلم والحقيقة والواقع ، لقد كتب هؤلاء عن اتفاق الإسلام في قرآنه الكريم مع العلم في نواميسه التي أثبتتها العلم الحديث ، فما هي الحقيقة التي بذل الأوائل جهوداً في محاولة التوفيق معها ، إنه الدس والتشكيك .

إن مثل هذه المحاولات للتوفيق جرت وما تزال تجري في عالم آخر ، ومع أصحاب عقائد أخرى ، وجدوا البون شاسعاً بين عقائدهم ، وبين الحقيقة والواقع والعلم .



وفي الصفحة ٣٥٧ ، يقول « العلامة » بروكلمان ، بعد عودة القدس إلى المسلمين « هدم صلاح الدين جميع أماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة ، وفي غير ما إبطاء ، سعى إلى أن يقضي على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق .. » .

هذا الكلام الذي لا يقبله عقل ، ولا منطق ، ويرفضه كل من عرف تاريخ صلاح الدين وأمثاله من قادة الإسلام الذين تمثلت فيهم مثل الإسلام وقيمه ، وتمسكوا بتعاليمه وشرائعه .

« وهدم أماكن العبادة » كلام ينسجم مع الأسلوب المتبع من قبل المتعصبين ضد الإسلام والحاquدين عليه ، وهو إلصاق التهم التي عرِف بها الأوربيون الصليبيون بالمسلمين ، ليأخذوا سبيل الهجوم ، وليقف المسلمون موقف الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم .

ولو استعرضنا التاريخ الوسيط والحديث ، لوجدنا أن « هدم المعابد » كان صفة ملازمة لحملات أوربة في شتى أنحاء العالم .

ماذا فعل الإسبان - على الرغم من عهودهم الموقعة ، ومواثيقهم القاطعة - في مساجد المسلمين ؟ .

وأين هي مساجد المسلمين ؟ بل وأين المسلمون من أبناء البلاد ؟

تجيبنا محاكم التفتيش ، التي شكّلت في إسبانية بمرسوم بابوي في تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٤٧٨ م ، والتي هدفت إلى إبادة المسلمين ومساجدهم - وكل أثر لهم - في الأندلس .

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة مؤسفة لشعب مغلوب ، على يد عدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً ، فهدموا مساجد المسلمين ، ومنعواهم من النطق بالعربية ، ثم فرضوا عليهم الجلاء ، فمات من مات خلال الإجلاء إلى العدو المغربي ، وحرق من بقي منهم ، وزاد الكردينال « كينس » على ذلك ، فأمر بجمع كل ما استطاع جمعه من الكتب العربية ، ونظمت أكادساً في أكبر ساحات المدينة ، وفيها علوم لا تقدر بثمن ، بل هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإنساني ، وأحرقها ، يقول غوستاف لوبون : « ظنّ رئيس الأساقفة الإسباني كينس أنه بحرقه مؤخراً ما قدر على جمعه من كتب أعداء دينه العرب - أي ثمانين ألف كتاب - محاذركم من صفحات التاريخ إلى الأبد ، وما درى أن ما تركه العرب من الآثار التي تملأ بلاد إسبانية يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد » .

وماذا فعل الصليبيون في بلاد الشرق ؟

أنسي بروكلمان الصورتين المتلازمتين في تاريخ البشرية ؟

صورة بيت المقدس حين استولى عليه الصليبيون في أواخر القرن الحادي عشر ، وصورته حين استعاده أهله في أواخر القرن الثاني عشر .

ففي الصورة الأولى نجد الصليبيين يخربون ويدمرون ويقتلون سكان المدينة ويذبحونهم تذييحاً ، حتى ليعترف بعضهم أنهم وصلوا إلى مسجد المدينة في بحر من الدماء بلغ ركبتيه .

وفي الصورة الثانية نجد صلاح الدين يحمي الأرواح ، ويبجّل رجال

الذين ، ويكرم الحرائر من النساء ، ويصون المباني المقدسة ، بل يرميها ويأمر بإصلاحها .

في الصورة الأولى وحشية هؤلاء الصليبيين وقسوتهم وهمجيتهم .

وفي الصورة الثانية سماحة الإسلام ونبله وكرمه .

يقول المؤرخ الإنجليزي المعاصر ، وهو من مؤرخي الحروب الصليبية ، رانسمان Runciman في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » ، عند كلامه عن رجوع بيت المقدس وموقف صلاح الدين وجيشه من سكان المدينة :

« كان المنتصرون معقولين وإنسانيين ، فعلى حين نجد الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاماً يخوضون في دماء ضحاياهم ، لانجد في هذه المرة بناءً نُهبَ ، ولا إنساناً أصابه أذى ، ونرى الحراس تنفيذاً لأوامر صلاح الدين منبئين لحراسة الطُّرق والأبواب ، وحماية المسيحيين من أي اعتداء قد يصيبهم » .

ورغم كل هذا ، يقول المؤرخ « الموضوعي ، العميق ، صاحب الشُّمول والجِدَّة » : « وهدم صلاح الدين جميع أماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة ، وفي غير ما إبطاء ، سعى إلى أن يقضي على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق » ؟!

مَنْ حمى الأرواح ، وبجّل رجال الدين المسيحي ، وكرّم الحرائر من النساء ، وصان المباني المقدسة ، ورمّها وأمر بإصلاحها ، وبثّ الحراس لحماية المسيحيين من أي اعتداء ، وحراسة الطُّرق والأبواب .. هذا عدو الحضارة ، « هدم جميع أماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة .. » ؟!!

إذن ماشأن الذين ذبحوا أهالي قيسارية داخل الجامع عن آخرهم دون أن يفرّقوا بين الرّجال المدنيين والنساء والأطفال ، حتى تحوّل الجامع إلى بركة كبيرة

من دماء قتلى المسلمين^(١) ؟

وما شأن الذين ذبحوا في مسجد عمر وحده في القدس عشرة آلاف مسلم^(٢) ،
وأحرقوا عشرات المساجد .

وما شأن الذين نبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم ،
وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم
تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا
يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عليكم ، وأخذوا مصحفاً من المشاهد
بظاهر حلب ، وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم^(٣) !؟

وما شأن الرهبان الذين وضعوا زجاجات الخمر على الصخرة المشرفة ،
وضربوا الناقوس داخل المسجد الأقصى بعد إبطال الأذان فيه^(٤) !؟

وما شأن الحملات التي وُصِفَتْ بكلمتين اثنتين فقط : « بربرية هجيّة »^(٥) ؟

البحث يطول عن هذه الصفحة السوداء في تاريخ أوربة كلها ، والتي
تابعتها تسطيراً في حملات التبشير في العصر الحديث ، فالتبشير مسؤول عن
الاستعمار الحديث بكل جرائمه وويلاته .

وهكذا .. لقد كان بروكلمان يأمل أن يكون مبشراً دينياً ، فلم يفتسه
التبشير ، وحقق بدسه وافتراءاته ومغالطاته ما أراداه التبشير منه .

ولكن .. يا ضياع وقت من بحث في التاريخ الإسلامي ولم يستند أو يتكئ

(١) الحركة الصليبية ٢٩٤/١

(٢) حضارة العرب ٣٢٦

(٣) الحركة الصليبية ٥٢٤/١ ، عن ابن العديم زبدة الحلب ص ٦٤٥ ، ونُقِلَ النصُّ حرفياً كما هو .

(٤) الحركة الصليبية عن : « العيني » عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤١ هـ .

(٥) الحركة الصليبية عن : Eyre: op. cit pp. 197-8

على بروكلمان ومصنفاته ، وكيف لا والحقائق عنده تقول : « وهدم صلاح الدين جميع أماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة ، وفي غير ما إبطاء ، سعى إلى أن يقضي على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق .. » !؟

إنَّ معابد القدس وكنائسها خاصة ، مازالت حتَّى يومنا هذا قائمة تشهد بفضل حماية صلاح الدِّين ورعايته لها ولأتباعها ، وصلاح الدِّين سعى إلى تطهير الأرض من الغزاة الصليبيين الَّذِينَ استباحوا الحرمات ، وقتلوا الأبرياء ، وارتكبوا ما لا تتركب مثله الوحوش الكاسرة ، وعرف صلاح الدين بدقَّة كيف يفرِّق بين الصليبيين وآثارهم العدوانية من جهة ، وبين النصارى من أبناء البلاد والمعابد التي أُقيمت ليعبد الله فيها، وكُنَّا نتمنى أن يكون بروكلمان بين الأسرى في مدينة القدس ، حين حرَّرها صلاح الدين ، ليصف لنا بحق كيف كانت معاملة ذلك القائد الفذ ، والبطل العادل لأسراه المجرمين من جنود الغزو الصليبي لهذه البلاد .



وفي ص ١٤٨ ، يقول بروكلمان : « لم يكن لهذه الغزوات - على القسطنطينية^(١) - من نتيجة غير إغراق سوق الرقيق بأسرى الحرب من الرُّوم (اليونانيين) ، ولقد اتَّفَق مرَّة أن كان سليمان - بن عبد الملك - في المدينة ، في طريق عودته من الحج ، فوهب أربع مئة من الرُّوم لبعض المقربين إليه هناك ، فأعملوا السيف في رقابهم ، على ما نجد في قصيدة لجرير ، وكان من الَّذِينَ شاركوا في هذا الصَّنيع » .

لأدري من أي مصدر يستقي بروكلمان رواياته ؟!

(١) لقد فكر المسلمون منذ فتحوا الشام وحرَّروها بعد انتصار اليرموك ، في فتح القسطنطينية ، وهذا أمر بدهي لكل ذي عقل ، فالقسطنطينية كانت آنذاك عاصمة النصرانية ، وبفتحها تغلب على شرقي أوربة وأواسطها .

ولا أدري كيف كان بروكلمان يتقبَّل روايات دون تمحيص ونقد ؟!

فنَّ أين أتى هذا « الموضوعي العميق » بهذه الرواية ؟

وهل كل سليمان بن عبد الملك ، وهو يؤدِّي فريضة الحج يرافقه هذا العدد الكبير من أسرى الرُّوم ؟ ولماذا يأخذ هذا الجيش من الأسرى معه ؟ ولم يفسِّر لنا بروكلمان لِمَ قتل المقرَّبون هؤلاء الأسرى ولم يستفيدوا منهم ، وهو القائل : « لم يكن لهذه الغزوات من نتيجة غير إغراق سوق الرقيق بأسرى الحرب من الرُّوم » ، فهل محاصرات العرب المسلمين للقسطنطينية ، هدفها جلب الأسرى والرقيق لذبحهم ؟ ما الفائدة من ذلك ؟

إنَّ أخبار سليمان بن عبد الملك ملأت الكتب ، فما سمعنا أنَّه فعل ذلك ، وسمعنا عنه أنَّه ولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ ، فلم يتخلَّف عن مبايعته أحد ، فأطلق الأسرى ، وأخلى السُّجون ، وعفا عن المجرمين ، وأحسن إلى النَّاس ، وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح ، جهَّز جيشاً كبيراً وسيَّره بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية ، واستمر الحصار سنة ، كان ابتداءؤه في ٢٥ آب (أغسطس) ٧١٦ م ، وانسحب مسلمة بعد أن تعهَّد إمبراطور الرُّوم ببناء بيت لأسرى العرب المسلمين بجوار قصر الإمبراطور ، وكذلك كان مسلمة هو الباني لأوَّل جامع في القسطنطينية - كما يذكر المقدسي وابن الأثير - .

هذا هو سليمان ، فهل يعقل - وهو المتَّصف برجاحة العقل - أن يعمل أو يسمح بإعمال السَّيف في رقاب الأسرى ، وللعرب المسلمين أسرى عند الروم ؟

فما الهدف إذن من هذه الأسطورة التي أوردها المؤرخ الكبير بروكلمان ؟

أولاً .. بدل ربط طريق العودة من الحج بصور الرُّحمة ، والإنسانية ، والرَّأفة ، والرُّوحانيَّة الصَّافية .. ربط بروكلمان طريق العودة من الحج بصور الوحشيَّة ، والذبح ، والدِّماء ، وقتل الأبرياء ..

الدّس ، والإساءة ، وتشويه تاريخنا ، والطعن بأعلامنا ، وبالتالي الافتراء على إسلامنا والاجترار عليه ، هدف بروكلمان ثانياً .

وبما ضياع وقت من بحث في تاريخنا العربي الإسلامي ، ولم يستفد ، أو يتكئ على بروكلمان في مصنفاته .



« وبسقوط الأمويين خسر العرب عموماً لالِـسُورِئُون وحدهم ، السّيادة المطلقة في الإسلام .. ومن هنا احتفظت العربيّة ، في الإمبراطوريّة الجديدة ، بسلطانها المطلق في المعاملات الرّسميّة ، وفي مجمل الحياة الفكرية ، وفي الدّين فوق كل شيء » ، ص : ١٧١ .

هذه الفكرة اقتبسها بروكلمان من يوليوس فلهاوزن ، وكتابه : « الإمبراطوريّة العربيّة وسقوطها » ، والذي ترجمه د. محمد عبيد الهادي أبو ريّدة ، ضمن مشروع الألف كتاب سنة ١٩٥٨ م ، وجعله تحت عنوان : تاريخ الدّولة العربيّة من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية^(١) .

يقول د. أبو ريّدة معلّقاً على هذه الفكرة : « وسقطت دولة بني أميّة التي كانت تعتمد على العرب والعروبة ، وقامت دولة بني العباس التي اعتمدت على الأعاجم من الفرس وغيرهم ، على أساس مبدأ المساواة الإسلامي ، ويرى المؤلف - فلهاوزن - بناء على هذا ، أنّ دولة العرب بإطلاق المعنى قد سقطت وانتهت بانتهاء حكم بني أميّة ، وهو لذلك عنون كتابه هذا : « الإمبراطوريّة العربيّة وسقوطها » . ومعنى هذا أنّ دولة بني العباس ليست دولة عربيّة ، بل إسلاميّة فحسب ، لكن في هذا تساهلاً كبيراً ، لأنّ العباسيّين كانوا عرباً ، ولأنّ الأمويين كانوا مسلمين .. » .

(١) ومُرّ التعريف بيوليوس فلهاوزن ، ص : ١٨

فبروكلمان يقتبس من فلهاوزن أحكاماً مطلقة ، دون تمحيص ، أو تقييد ،
أو مراجعة ، فيقول : إن العرب خسروا السيادة المطلقة في الإسلام بسقوط
الأمويين .

أوليس من أبرز مظاهر السيادة الحُكَّام أنفسهم ؟

ألم يكن خلفاء بني العباس من العرب الأقحاح ؟

ألا يكفي وجود بني العباس على رأس الحكم لتكون للعرب سيادة في دولة
الإسلام ، في فترة القوة على الأقل ؟

ألم يقض بعض هؤلاء الخلفاء على مسارأوه خطراً ومؤامرات من عناصر غير
عربيّة ، كما هي الحال في مقتل وزيرهم أبي سلمة الخلال ، ثمّ في نكبتهم للبرامكة ؟!

وما احتفاظ العربيّة بسلطانها المطلق في المعاملات الرّسميّة ، ومجمل الحياتين
الفكرية والدينيّة ، إلا دليل على أنّه بقي للعرب دورهم الأوّل في الدّولة
العباسيّة .

☆ ☆ ☆

وفي حديث بروكلمان عن المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين ، وملكوك
الطوائف في الأندلس ، ص ٣٠٨ ، يقول : « والواقع أنّه دفع - المعتمد بن عبّاد -
وزملاءه ثمن هذه المساعدة غالياً ، فما أن نزلت الهزيمة بالعدو حتّى فقدوا
عروشهم جميعاً ، واحداً بعد واحد ، أما المعتمد فاقتيد إلى إفريقية حيث مات في
سجن أغمات مراكش سنة ١٠٩٥ » .

عبارات خاطئة ظالمة ، وصوابها ما يلي :

أثخن النّصارى الإسبان في ولاية سرقسطة ، ولم يردّهم في حربيهم أيّ اعتبار
إنساني ، مادام الأمر متعلقاً « بأعداء الدين » ، فاجتمع المعتمد بن عبّاد مع عدد

من الأمراء في إشبيلية ، ثم في قرطبة ، وأتفقوا أن يرسلوا سفيراً إلى يوسف بن تاشفين ، يلتسون عونه وغوثة ، فحمل السفير رسالة وقع عليها ثلاثة عشر من الأمراء ، يطلبون معونة ابن تاشفين وغوثة .

كما أمت مدينة مراكش وفود شعبية كبيرة^(١) ، بزعامة بعض الفقهاء ، تستنجد بأمر المرابطين ، الذي كانت سياسته ترمي إلى المحافظة على الوحدة الإسلامية ، وإتقاد ما يمكن إتقاده من الأراضي الإسلامية في إسبانية .

عقد ابن تاشفين مجلسه الاستشاري لتداول الأمر ، « فكيف ستكون الحرب في جزيرة وعرة البسائط ، تعترضها جبال صعبة المسالك ؟ »^(٢) ، وذللت الصعاب باتخاذ الجزيرة الخضراء نقطة ارتباط بين المغرب والأندلس .

وقبل ابن تاشفين الدعوة لنجدة الإسلام في إسبانية ، وفي ربيع الأول ٤٧٩ هـ / آب (أغسطس) ١٠٨٦ م ، عبر بجيشه من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، ومنها انطلق إلى سهل الزلاقة^(٣) ، بعد أن أعد مع أمراء الطوائف خطة المعركة الفاصلة ضد ألفونسو السادس ، وكان اللقاء يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٨٦ م ، حيث حقق ابن تاشفين ومن معه نصراً رائعاً ، ذاع خبره في جميع الأقطار ، فانتصار « الزلاقة » العظيم ، انتصار حققه المرابطون بأسباب وجدارة ، فسجل في تاريخ الإسلام فخراً لا يقدر بثمن .

وعفاً ابن تاشفين وجنده المرابطون عن الغنائم ، يقول ابن خلكان عن الغنائم : « فلما حصلت عفاً عنها يوسف بن تاشفين ، وأثر بها ملوك الطوائف ،

(١) الاستقصا ٣٦/٢ ، الحلل المشية ٣٠ ، الحلل السندسية ٤٧

(٢) انظر : الزلاقة بقيادة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين .

(٣) الزلاقة : جنوب غربي الأندلس ، شمالي وادي آنة ، ما بين تطليوس وماردة .

وعرّفهم أن مقصوده إنّما كان الغزو - أي الجهاد - لا الغنائم ^(١) ، لقد عاد إلى مراكش بعد أن أعاد الثقة إلى المسلمين جميعاً .

وحشد ألفونسو السادس جيشاً جديداً ، جاءت إمداداته من فرنسا وألمانية ، لقد دفعت الروح الصليبية أفواج المتطوعين من جميع أنحاء أوربة إلى إسبانية ، فأدرك ابن تاشفين خطورة الموقف ، فعبر ثانية إلى الأندلس في ربيع الأول ٤٨١ هـ / حزيران (يونية) ١٠٨٨ م بجيش ضخم ، فوجد بعض ملوك الطوائف ^(٢) متحالفاً مع الإسبان ، وبعد معارك عديدة مع الإسبان ، عاد ابن تاشفين إلى مراكش ، تاركاً في الأندلس حامية من جنده .

لقد حاول بعض أمراء الأندلس توطيد سلطانهم على حساب الإسلام وأهله ، فعاد ابن تاشفين للمرة الثالثة ، بطلب من القضاة والفقهاء الأندلسيين ، حتى الخليفة العباسي في بغداد ، أذن لابن تاشفين بالإيقاع بأمراء الطوائف ، والواقع يقول : إن ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس ، وتردد كثيراً قبل العبور الأول ، وعف عن الغنائم بعد الزلاّقة ، ثم يعود في العبور الثاني للمخطر الجاثم ، وبسبب الخلافات ما بين أمراء الطوائف أنفسهم ، وتحالف بعضهم مع أعدائهم ، وكان الجواز الثالث لوضع حد لمهزلة أمراء الطوائف ، فلقد آن - وباسم الإسلام - لهذه الدويلات الضعيفة المتناحرة ، المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي .

وهكذا .. فتح المرابطون ولايات الأندلس كلّها : غرناطة ، ومالقة ، وجيان ، وقرطبة ، وإشبيلية ، والمرية .. وأصبحت إسبانية المسلمة كلّها بيد المرابطين سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، باستثناء ولاية سرقسطة ، حيث كان أبو جعفر أحمد بن هود « المستعين بالله » ، لموقفه المشرف المشهود في وجه الزحف النصراني .

(١) وفيات الأعيان ١١٧/٧

(٢) كعبد العزيز بن رشيق ، أحد ولاية إشبيلية .

صحيح أن المرابطين ضَمُّوا بعد العبور الثالث الأندلس ، ولكن لماذا ؟ لفشل أمراء الطوائف الهُزل في حماية الأندلس من الأخطار الخارجية .

ولما انتهى ابن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس ، عاد إلى إفريقية ، حيث توفي - رحمه الله - يوم الاثنين ٢ المحرم ٥٠٠ هـ / أيلول (سبتمبر) ١١٠٦ م .

إذن .. لم يفقد أمراء الطوائف عروشهم جميعاً واحداً بعد واحد بعد الزلَّاقة مباشرة ، لقد فقدوها فعلاً منذ وجود الخطر الدَّاهم ، وبقائهم على أثرهم وأنانيتهم ، متفرِّقين وقلوبهم شتَّى ، متناحرين ، لا يهمهم إلا ذاتهم ، وعدوهم وحَّد صفه ، لذلك .. فإنَّ جمهرة المسلمين في العالم الإسلامي كلّه ، راق لها سقوطهم ، ولم ترَ في يوسف بن تاشفين غازياً متغلباً قاهراً ، بل لقد رأت فيه منقذاً بحق ، واعتبرته بصدق يد العناية الإلهية لمعاقبة الأمراء الباغين العابثين اللاهين عن الجهاد بلاذهم وترفعهم وفرقتهم ..

« أمّا المعتمد ، فاقتيد إلى إفريقية حيث مات في سجن أغمات مراکش سنة ١٠٩٥ م » .

المعتمد لم يسجن ولم يعذب في رأينا ، بل كانت له إقامة جبريَّة ، بدليل أن زوجه كانت معه دائماً ، وورد أنَّ بناته اشغَلن بالغزل لكي يعلن والدهن ، فلو كان سجيناً لما كانت زوجه معه ، ولما احتاج لإعالة بناته وشغلن بالغزل .

فلماذا هذا الدس من بروكلمان في حديثه عن المرابطين وأميرهم العظيم يوسف بن تاشفين ؟!

إنَّ ابن تاشفين علم من أعلام المسلمين الكبار ، فانتصار الزلَّاقة ، انتصار سجل في تاريخ الإسلام فخراً لا يقدَّر بثمن ، أمدَّ بقاء العرب المسلمين أربعة قرون في الأندلس ، فساء ذلك بروكلمان « الموضوعي » ، بعد أن أحاط بالموضوع ، وألمَّ به من جميع جوانبه !!

افتراءات بروكلمان

على تاريخنا الحديث

وفي حديث بروكلمان عن ابن حزم [أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم : ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤ م] : يقول : « ومع أنه كان في أول أمره من الشافعية الذين حظوا في قرطبة بتأييد عبد الرحمن الثالث كسد في وجه فقهاء المالكية ، فقد انقلب الآن إلى صعيد الظاهرية الرافعين لواء الإسلام ، كما كان عليه منذ نشأته الأولى » ، ص ٣١٣ .

وهنا نتساءل سؤالين اثنين :

هل الشافعية من « الباطنية » كي ينقلب ابن حزم إلى الظاهرية ؟
وهل الشافعية لا ترفع لواء الإسلام ، كما كان عليه منذ نشأته الأولى ؟

☆ ☆ ☆

وقال بروكلمان في ص ٣١٦ : « والواقع أن جميع الأديان العالمية قد اضطرت إلى أن تتساهل مع معتقدات معتنقيها الجدد السابقة ، ففي مصر والشام نفسها ، حيث كانت النصرانية قد مهدت السبيل للإسلام » .

وتتساءل هنا أيضاً سؤالين اثنين :

كيف تساهلت اليهودية مثلاً مع النصرانية ؟
وكيف مهد تثليث النصرانية السبيل إلى التوحيد المطلق في الإسلام ؟

☆ ☆ ☆

وفي ص ٤٤١ ، يقول بروكلمان بحقد وصليبيّة واضحة : « والحق أن السلطان محمد - الفاتح - لمثل أصدق تمثيل العثماني القديم ، بجميع فضائله ونقائصه ، ذلك بأنّه هتته الجبارة ، وسعيه الدائب في سبيل أهداف جديدة ، اقترنا بوحشيّة عدّت قسوة عصره نفسه ، بمراحل عديدة ، وإنّه ليتحتم علينا أن نعود القهقري إلى عهد الملوك الآشوريين الكبار ، لنقع على ما يوازي معاملة لأسرى الحرب ، هذه المعاملة التي كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على قطع الجسد نصفين بواسطة المنشار .. » .

محمد الفاتح ، قائد عسكري ، وحاكم لدولة تعتبر في مقدّمة الدّول قوة واتّساعاً آنذاك ، فماذا يتطلّب بروكلمان في هذا السلطان من مواصفات حين قال إنّهُ يمثّل العثماني القديم ؟ وماهي الوحشيّة التي عناها بروكلمان ؟ .

هل هي في قصفه أسوار القسطنطينيّة بالمدافع الضخمة ؟ .

وهل كان يرى أن يقصفها بجبال رمل ، أو بحصى ، أو بكرات من القطن ؟

إنّه قائد يحاصر عاصمة الرّوم التي امتنعت عن الكثيرين من القادة قبله ، ومع ذلك ، عندما تمّ فتح المدينة دخلها محمد الفاتح ، ليصدر أوامره فوراً بمنع كل اعتداء ، فساد الأمن حالاً ، وأعلن في كافة الجهات بأنّه لا يعارض مطلقاً في إقامة شعائر ديانة المسيحيين ، بل ضمن لهم حرّيّة دينهم ، وحفظ أملاكهم ، فرجع من هاجر من المسيحيين ، وأعطاهم نصف الكنائس ، ثمّ جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريريقاً لهم ، فاختاروا جورج سكولاريوس ، واعتمد السلطان هذا الانتخاب ، وجعله رئيساً للكنيسة الشّرقية ، واحتفل بتثيته بنفس الأبهة والنظام الذي كان يعمل للبطارقة في أيّام ملوك الرّوم المسيحيين ، وأعطاه حرساً من عساكر الانكشارية ، ومنحه حقّ الحكم في القضايا المدنيّة والجنايئة

بكافة أنواعها المختصة بطائفته ، وعيّن معه في ذلك مجلساً مشكّلاً من أكبر موظفي الكنيسة ، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسس ..

هذا ما عمله السلطان محمد الفاتح بعد دخوله القسطنطينية ، أما قطع الأجساد بالمناشير ، فهذا ما سمعناه إلا عند بروكلمان .

وما وجه الشبه بين محمد الفاتح وبين الآشوريين ؟

لقد بالغ الآشوريون في الوحشية والعنف ، وأسرفوا في إتلاف الحياة البشرية بصورة مؤلمة ، لقد دمّروا المدن المغلوبة تماماً ، وحرقّت عن آخرها ، وقطّعت أشجارها ، وكوفئ الجندي الآشوري بعدد الرؤوس التي قتلها وقطعها ، وهكذا كان مصير سكان المدن المغلوبة الإبادة ، أما الأشراف والحكام المغلوبون ، فكانوا يلقون معاملة خاصة ، حيث تصل أذانهم ، وتجعد أنوفهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ، أو تسلخ جلودهم وهم أحياء ، أو تشوى أجسادهم فوق نار هادئة .. وهكذا تأسست إمبراطوريتهم الآشورية على الجحيم ، وركام المدن ، وأنين الجرحى ، وآلام الشكالى .

فما وجه الشبه بين فتح القسطنطينية ، وبين عهد الملوك الآشوريين الكبار ؟!

وهلاً شبه بروكلمان نابليون بونابرت بالآشوريين ، حين أقدم على قتل أسرى مدينة يافا المسلمين ، وعددهم حوالي أربعة آلاف أسير ؟ أم أنّ الوحشية لا تكون إلا إذا كان الفاتح مسلماً ، والأسير المغلوب غير مسلم ؟!؟ .

☆ ☆ ☆

وفي ص ٤٥٢ وصف بروكلمان خير الدين بربروساً بقوله : « قرصان يوناني » .

وفي ص ٤٧١ يقول : « وكانت سفن القرصان في شاطئ إفريقية الشماليّة تؤلّف ابتداءً من عهد بربروسا جزءاً هاماً جداً من الأسطول العثماني ، فقد كان هؤلاء القرصان يلتحقون بأسطول الدولة زرافات زرافات كلّما أزمع السلطان خوض غمار الحرب البحريّة لينزلوا في حماية هذا الأسطول أعظم الأذى بتجارة النصارى . »

وفي ص ٦٢٠ تكلم بروكلمان عن « أعمال القرصنة » أيضاً .

وقبل الرّدّ على هذه العبارات الحاقدة ، نتساءل من خير الدين بربروسا ؟

أولاً أصله من الأناضول ، ولم يكن يونانياً في يوم من الأيام ، هاجر أبوه من الأناضول ونزل في متلين (مدليلي) Metellin حيث ولد له أربعة أولاد منهم خير الدين ، وذلك سنة ٨٨٨ هـ = ١٤٨٣ م ^(١) .

عمل خير الدين وأخوه عروج في البحر ، فتمكّن من مواجهة الأخطار التي هدّدت سواحل الجزائر ، وأفلح في إخراج النصارى الإسبان منها سنة ١٥١٩ م ، فانزعج الإسبان لهذه الانتصارات المتلاحقة التي أحرزها خير الدين ، فأرادوا الاستيلاء على بعض المواقع ليتخذوا منها مهبطاً لهم على الشاطئ الجزائري ، ولكن الحملة المرسلّة باءت بالخيبة .

ولبطولات خير الدين التي ظهرت في صد هجمات الإسبان على الشواطئ العربية في الشمال الإفريقي أصبح أمير البحر « قبودان باشا » ، فانصرف لتنظيم الأسطول التركي ، وكان له شخصياً نصيب فعال في المعارك المظفّرة التي خاضها هذا الأسطول .

(١) انظر موسوعة القرن العشرين ٧٩٨/٣ لفريد وجدي ، ودائرة المعارف الإسلاميّة ٦٤/٩ على ما فيها من دس ، حيث بدأت بعبارة : « خير الدين بربروسه ، القرصان التركي المشهور » .

وأراد شارل الخامس ملك إسبانية أن يستميل إليه بربروساً ، فعرض عليه سراً أن يعترف به صاحب السُلطان على شمالي إفريقيا كله ، نظير دفع جزية بسيطة قليلة ، وتظاهر بربروساً بالقبول ، ولكنه كشف عن ذلك من فوره إلى السُلطان .

أرسله السُلطان العثماني لمحاربة أساطيل إيطالية وإسبانية لغاراتهم المتكررة على السفن والشواطئ العثمانية ، ولما اتحدت سفن إسبانية وإيطالية والبندقية تحت قيادة الأدميرال الجنوبي أندريا دوريا Andoreas Doria التقوا بأسطول خير الدين ، وكان تحت قيادة علي جلبي ، فحمل عليهم وحملهم خسائر فادحة ، وجرح الأدميرال ، أندريا دوريا .

ولما علم خير الدين أنَّ أسطولاً دولياً كبيراً يحاول غزو شواطئ الدولة العثمانية عداده ٢٢٠ سفينة ، وكان مع خير الدين ١٤٠ سفينة فقط ، لم تشنه هذه القلّة من الهجوم ، فدارت الدائرة على السفن الدُوليّة ، وهربت تحت جناح الظلام ، فتعقبهم وغنم سفنهم .

وعندما استجارت فرنسا بالسُلطان سليمان القانوني ضد ملك الإسبان والألمان ، أرسل خير الدين ففتح للفرنسيين حصوناً كثيرة ، ولما أقبل الشتاء ، استقر بمياه ميناء طولون الفرنسي ، ولكنه لشدة حذره أبقى أسطوله مهياً للقتال ليلاً ونهاراً ، فخافه الفرنسيون ، فأعطوه مصاريق سفره ، ورجوه العودة مزوداً بالشكر .

ومما يذكر أن خطط هذا البحار المسلم العبقرى العظيم ، ومناوراته البحرية ، استخدمها الأmirالات الإنجليز المشهورون واقتبسوها ، مثل : رودني ، وجرفس ، ونيسن ، وولسون ..

توفي - رحمه الله - في سنة ١٥٤٦ م ، ودفن في المسجد الذي ابتناه في (بيوك

كارل بروكلان (١٠)

درة) بعد أن جعل البحر المتوسط كله بحيرة عثمانية ، لاسلطة لأيّة دولة فيه ، وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني ، في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي .

هذه نبذة عن حياة مجاهد مسلم كان يطمع إلى جمع شمال إفريقيا كله في دولة واحدة ، فردّ الغزو الإسباني على الشواطئ العربية ، فهو المؤسس الحقيقي لولاية الجزائر .

ويذكر له نقل سبعين ألفاً من مسلمي الأندلس الذين طردهم الإسبان على سفنه ، ليوصلهم آمنين إلى شواطئ المغرب العربي .

وبعد هذا العرض .. عجيب منطق المتعصّبين الذين أعماهم الحقد ، وأبعدهم التّعصب عن الحقّ والحقيقة ، وأوقعهم في المواقف المتناقضة ، متى كان خير الدين بربروسا قرصاناً يقطع الطرق البحريّة على السفن الأوربيّة ؟ إنّه منطق بروكلمان وأمثاله ، من أولئك الذين يجدون في مواقف خير الدين بدفاعه عن سواحل الشمال الإفريقي ضد الغزو الأوربي عامة ، والإسباني خاصّة لونا من القرصنة ، فحقى كان الأبطال المدافعون عن حرّيّة شعوبهم ، وكرامة بلادهم ، وحدود أوطانهم لصوصاً قرصنة ؟ إلّا في منطق الاستعماريين والمتعصّبين ومن سار في طريقهم ، فقد رأى بروكلمان في البطل المجاهد « قرصاناً » ، وفي أعمال الغزو الأوربي لإفريقية لتجارة الرقيق ، ونهب الخيرات « تجارة » ، فيا له من منطق غريب عجيب .

لقد جابه خير الدين تحت لواء دولته العالمية ، أساطيل دول أوربية أعلنت الحرب على دولته ، فهل يرى بروكلمان « الموضوعي » أن تترك هذه الأساطيل الأوربيّة تستعمر الشواطئ العربيّة ، ليبعد « القرصنة » عن بطلنا المجاهد !؟



ومن عجائب ماخطه بروكلمان في كتابه ، قوله في ص ٤٨٢ : « ذلك أن العلم لم يكن يعني عند المسلم اكتساب معرفة جديدة ، بل التمكن إلى أقصى حدّ مستطاع من المادّة التي أنتجتها الأجيال السالفة » .

من أغرب الأمور أن يقرأ أو يُسمع مثل هذا القول من إنسان على شيء من العلم والثقافة ، فضلاً عن كونه عالماً ومؤرخاً ، والتّاريخ ، والمنصف ، مسلم كان أو غير مسلم ، يشهد بتقدّم العلوم المختلفة ، وفي مقدّماتها العلوم التجريبيّة ، كالطب ، والفيزياء ، وعلم الضوء ، والكيمياء ، والتّشريح ، والنبات ، والرياضيات .. نعم تشهد الدّنيا بتقدّم هذه العلوم على أيدي علماء المسلمين تقدّمًا ندر مثيله في تقدّمها على أيدي أبناء أمة أخرى في التّاريخ ، فهل يعني هذا أنّهم لم يكتسبوا معرفة جديدة ، وآلاف آلاف الكتب في هذه العلوم ماذا تعني عند بروكلمان ؟!

هل عمي بروكلمان أم تعامى عن :

معظم أسماء النجوم حتى يومنا هذا ، في اللغات الأوربية ، عربيّة .

ابن رشد : شرح أرسطو ليزرر حجمه وآراءه الشّخصيّة ، فعندما ترجمت شروحه إلى اللّغات الأوربيّة حلّت عقال الفكر الأوربي ، وفتحت أمامه باب البحث والمناقشة واسعاً على مصراعيه .

ألم ينتقد ابن سينا أفلاطون في النّفس ، حيث اعتقد بالتّقصّص ، فعند ابن سينا ذلك بعيداً عن الحقيقة ؟

وابن النّفيس ، ألم يكتشف الدّورة الدّمويّة الصّغرى قبل وليم هارفي بأربعة قرون ؟

والزهراوي ، ألم يكن أوّل من وصف عمليّة تفتيت الحصى في المثانة ؟

وجابر بن حيان ، ألم يكن أوّل من استخرج حامض الكبريت وسمّاه زيت الزّاج ، وأوّل من اكتشف الصّودا الكاوية ، وأوّل من استحضر ماء الذهب ؟ وماذا نذكر في علم النّبات ، أبحاث الدّينوري ، أمّ أبحاث رشيد الدّين الصّوري ، أمّ ابن البيطار الذي عُرف في أوربة باسم : « أبو علم النّبات » ؟ . وفي مجال الطّيّران ، ألم تكن أوّل تجربة طيران لعباس بن فرناس الأندلسي سنة ٢٤٦ هـ = ٨٦١ م ؟ .

وابن يونس المصري ، ألم يخترع الرّقاص (البندول) الذي توسّع غاليلو في درسه ؟

وأبو الفتح عبد الرحمن الخازن (أو الخازني) ، ألم يوجد الثّقيل النّوعي للسّوائل والمعادن بأرقام تطابق أو تقارب الأرقام الحديثة اليوم ؟ وتكلّم عن الجاذبيّة قبل نيوتن : « إنّ الأجسام السّاقطة تنجذب في سقوطها نحو مركز الأرض » .

وبديع الزّمان الجزري ، ألم يخترع مبدأ الدّسامات في الميكانيك ؟ وتقي الدّين الدّمشقي ، ألم يخترع المضخّة ذات الأسطوانات السّتة ، والتي هي فكرة المحركات الانفجارية في جوهرها ؟

وابن الهيثم ، رائد علم البصريّات (الضّوء) في العالم بلا منازع ، ألم ينقض نظريّة إقليدس وبطليموس في الإبصار ؟ لذلك قال عنه روجر باكون : ابن الهيثم ، أبو المنهج العلمي في البحث .

والخوارزمي ، أبو اللوغارتمات ، وأبو الجبر ..

واليوم ، على سطح القمر مراكز باسم الفلكيّين العربيين المسلمين : محمد بن جابر بن سنان البتّاني ، وعبد الرحمن الصّوفي ، لماذا ؟

ألم يقتبس « كانت » آراء ابن رشد في الزمان والمكان ؟ ونظرية المعرفة عن ابن حزم ؟

ألم يسلك توما الأكويني مسلك ابن سينا وآراءه في أدلته على وجود الله سبحانه وتعالى ؟

ألم يأخذ الكردينال متى الأكواسبارطي نظرية الفيض عن ابن سينا ؟
وسببها أبي حامد الغزالي ، ألم يقتبسها دافيد هيوم ، حتى قال أرست
رينان : إن دافيد هيوم ، لم يقل شيئاً في السببية فوق ما قاله الغزالي .
وفي الشك ، ألم يبدأ ديكارت ، بما بدأه الغزالي قبله بخمسة قرون ونصف
القرن ؟

وأثر ابن باجة ، وابن طفيل ، وابن خلدون في أوربة وعلمائها معروف
يذكره كل موضوعي منصف^(١) .

ونسأل بروكلمان : إن كان المسلمون لم يكتسبوا معرفة جديدة ، بل أخذوا
ما أنتجته الأجيال السالفة فقط ، لماذا ترجمت كتبهم إلى اللاتينية ، ومنها إلى كل
اللغات الأوربية ؟ ولماذا بدأت النهضة الأوربية الحديثة بعدها مباشرة ؟! وإن لم
يكن فيها الجديد ، لماذا حرصت جامعات أوربة ومكتباتها على اقتنائها بأثمان
باهظة ، وتحافظ عليها اليوم وكأنها جزء من تراثها الثمين ؟!

ليت بروكلمان لم يذكر ما ذكره في ص ٤٨٢ : « إن العلم لم يكن يعني عند
المسلم اكتساب معرفة جديدة ، بل التمكن إلى أقصى حدٍّ مستطاع من المادة التي
أنتجتها الأجيال السالفة » ، ليت له لم يذكر ما ذكره لشيء واحد فقط ، وهو :
ليحفظ ماء وجهه أمام علماء أوربة المنصفين ، قبل علماء المسلمين ، وليبقى اسمه

(١) هذه الحقائق العلمية من كتابنا : « الحضارة العربية الإسلامية » .

في قائمة العلماء ، أمّا وقد ذكر ما ذكر ، وقال ما قال ، فإنه غير جدير بلقب عالم موضوعي ، أو مؤرخ منصف ، لأنه ما كان يعتقد أحد أن الجهل بالإسلام ومنهجه ، والمسلمين وعلومهم وحضارتهم يصل ببروكلمان إلى هذا القول .

☆ ☆ ☆

وفي ص ٥٥٠ ، يقول بروكلمان في معرض حديثه عن محمد بن عبد الوهاب : « والواقع أن هذا المصلح لم يكن يتمتع من خصب الأفكار ، أو الابتكار ، بأكثر مما كان يتمتع به الرسول نفسه » .

كيف عرف بروكلمان خصب الأفكار أو الابتكار عند محمد بن عبد الوهاب ؟

وما علاقة ذلك بما كان يتمتع به الرسول ﷺ نفسه في هذا المجال ؟!

ولو سألنا بروكلمان عن خصب الأفكار أو الابتكار عند الرسولين الكريمين موسى وعيسى ، فإذا يكون جوابه ؟

وهل يجزؤ على قوله ما قال بحق رسولنا الكريم ؟

لقد عودنا بروكلمان - وأمثاله من المستشرقين المتعصبين - استغلال كل مناسبة ، بل ودون مناسبة ، ليدس على الإسلام ورسوله ، محاولاً تشويه الحقائق ، وزرع الشكوك ، ولكن في نفوس الجهلة ، لافي نفوس العلماء ، وليت بروكلمان ما يزال حياً ليرى بأّم عينه إنساناً لا يمت إلى نبي الإسلام بصلة قومية ، أودينية ، فهو أمريكي نصراني^(١) ، ويضع على رأس قائمة المئة الأوائل محمد بن عبد الله ﷺ ، لما أحدثه من أثر ديني وديني في المجتمع الإنساني ، ما عرفت

(١) إنه مايكل هارت ، صاحب كتاب « المئة الأوائل » مترجم إلى العربية ، طبع ونشر دار قتيبة بدمشق .

البشريّة في تاريخها مثيلاً له بأثاره وتساخجه ، أكان كل ذلك دون خصب في الأفكار ، وعظمة في الابتكار ؟ إنه التّعصّب الذمّيم ، والحقد التبشيري الدفين ، وليته وأمثاله يقلّبون مناظير النقد إلى داخلهم ، ليروا ما لا يقبله عقل ولا منطق ، فأين الإنصاف والعلم والموضوعيّة .



« كذلك كانت نهاية الإمبراطوريّة العثمانيّة ، لقد قضت بوصفها ممثلة لمبدأ أبلته الأيّام ، وطرحته وراءها ظهرياً ، لتنهض على أنقاضها الدّولة التركيّة القوميّة الحديثة » ، ص ٦٠٦ .

أولاً : الكلام الوارد في هذا النص ، يدل على أن صاحبه بروكلمان ، بعيد كل البعد عن الموضوعيّة ، فالمؤرّخ العالم ، هو الَّذي يذكر ما حدث دون تعليقات عاطفيّة ، يليها حقد دفين ورثه المؤلّف من عهد الحروب الصليبيّة .

ثانياً : كيف يحكم سلفاً على أمور مستقبلية ، هي في حياة الشعوب لا تعد بالسّنوات ، كما هي في حياة الأفراد ، فالمبدأ الَّذي عيّنه بروكلمان ، ما أبلته الأيّام ، بل أبلت معظم أعدائه ، ولم تطرحه وراءها ظهرياً ، بل طرحت المتعصّبين الحاقسدين ، ولئن ذكروا ، فيذكروا بسمومهم الّتي تنبّه لها العالم الإسلامي ، ويذكروا بالحقد والصليبيّة والبعد عن العلم والحقيقة والموضوعيّة .

أما ذلك المبدأ الَّذي عناه بروكلمان ، وما تجرّأ أن يذكره صراحة ، فهو الإسلام ، والإسلام بحمد الله وتوفيقه وعنايته ، يزداد كل يوم بصحوة أبنائه أولاً ، وبقوّة وعلم من يعتنقه من مفكّري العالم وعلمائه الكبار ، وليس من فقرائه وجياعه ومرضاه ، الَّذين يُعَرّوْن بالطّعام والدّواء لاعتناقهم ، وإنّا يعتنق الإسلام اليوم كبار العلماء ، وعظماء المفكّرين ، ممن أزاح عن فكره وقلبه غشاوة الحقد الّتي حملها بروكلمان وأمثاله ، فحالت دونه ودون الحقّ المبين .

وفي ص ٦٢٥ يقول بروكلمان : « في معسكر - مقر والد الأمير عبد القادر الجزائري - حيث كان الأمير نفسه يلتمس الراحة في كثير من الأحيان ، وقد أقي على هذا القصر حين من الدهر كان فيه مركزاً خطراً من مراكز التعصب الديني في الإسلام » .

وفي ص ٦٢٦ تابع حديثه عن المقاومة الجزائرية قائلاً : « نيران العصبية الدينية بين القبائل ، فتابعت حرب العصابات ضد الفرنسيين » .

العصبية الدينية ونيرانها موجودة فعلاً وواقعاً وصدقاً ، يشهد الله ، ويشهد التاريخ الصادق ذلك ، لقد كانت فرنسا تشعر أنها زعيمة الدول الكاثوليكية في حوض البحر المتوسط ، وقد تأكد هذا الاتجاه في عهد شارل العاشر ، وهو المعروف بتأييده المطلق لحزب الكنيسة ، فعندما انقسم مجلس الوزراء الفرنسي على نفسه سنة ١٨١٢ م بخصوص أهداف الحصار على الشواطئ الجزائرية ، دافع كليرمون دي تونير ، وزير الحربية ، عن وجهة نظر الاحتلال ، في تقرير من فقراته : « لقد أرادت العناية الإلهية أن تتأرحمة جلالكم بشدة في شخص قنصلكم على يد أعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يدعى ابن لويس التقي لكي ينتقم للدين وللإنسانية ، ولإهاتته الشخصية في نفس الوقت ، وربما يسعدنا الحظ بهذه المناسبة لننشر المدينة بين السكان الأصليين وندخلهم في النصرانية » ^(١) .

وعندما أقام بورمون قائد الحملة الفرنسية صلاة الشكر في فناء القسبة بمناسبة الانتصار واحتلال الجزائر ، بعث بوصف لهذا الاحتفال قال في نهايته : « مولاي ، لقد فتحت بهذا العمل باباً للمسيحية على شاطئ إفريقية ، ورجاؤنا أن يكون هذا العمل بداية لازدهار الحضارة التي اندثرت في تلك البلاد » ^(٢) .

(١) و (٢) الإسلام وحركات التحرر العربية ، ط ٢ ، دار الفكر بدمشق .

ولم يخف المؤرخون المعاصرون هذه الحقيقة ، فوصف إدوار دريو المؤرخ الفرنسي ، المعروف بدراساته عن الشرق حادث الاستيلاء على الجزائر « بأنه كان أول إسفين دق في ظهر الإسلام »^(١) .

وفي ١٢ أيّار (مايو) ١٨٣٠ م أوضح مارتيناك رئيس الوزراء الفرنسي هدف الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر : إذا سقطت حكومة الدّاي ، فإنّ فرنسا مستعدة لدعوة حلفائها لعقد مؤتمر دولي يناقش الوضع الجديد الذي يمكن إقامته في الجزائر لخير المسيحية جمعاء .

لقد كان الاستعمار الفرنسي في الجزائر بدعاً في تاريخ الاستعمار كلّهُ ، إذ جاءت فرنسا تقول إن شعباً عربياً مسلماً جزء منها ، وإن أرضاً عربية إسلامية في إفريقيا جزء من فرنسا الأوربية ، وسارت فرنسا على هذه السياسة التي أعلنتها ، وهي إدماج الجزائر فيها ، والاستيلاء على أرض الجزائر ، ومحاربة الإسلام ، وكانت القوة هي السبيل لتحقيق هذه الأشياء جميعاً^(٢) .

ووقف الجنرال روفيجو يشير على الفرنسيين باختيار مسجد من مساجد الجزائر ليصير كنيسة ، فأشاروا عليه بجامع « القشاوة » ، وهو من أجل مساجد البلاد وأروعها ، وكان في المسجد أربعة آلاف مسلم ، هجم عليهم الفرنسيون وذبّحهم عن آخرهم ، وفي ١٨ كانون الأول سنة ١٨٣٢ م ، كان المسجد كاتدرائية الجزائر ، وحولوا غير هذا المسجد مساجد أخرى كنائس ، مثل مسجد « القصبة » ، وهو من المساجد التي ترتبط بها ذكريات إسلامية مجيدة .

ويبلغ الحق والحقد حدّاً كبيراً بسكرتير الحاكم الفرنسي بوجو ، فيقول في

(١) المغرب العربي ، د . صلاح عقاد ، ص ٨٦ ، والجزائر أرض المعارك ، د . بهي الدين زيان ، ص ٥٥/٥٤

(٢) الجزائر أرض المعارك ، ص ٤٩

الكنيسة التي قامت وسط دماء أربع آلاف شهيد مسلم : « إن آخر أيام الإسلام قد دنت ، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسة ، فلا يمكننا أن نشك في أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ، أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسة إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً » .

ومن أجل هذه الصليبية الحاقدة في بلد عربي إسلامي ، بذل المبشرون جهوداً كبيرة ، وشجعت الإدارة الفرنسية بناء المعابد اليهودية ، والكنائس المسيحية ، حتى صار في الجزائر ٣٢٧ كنيسة ، و ٤٥ معبداً لليهود ، إلى جانب ١٦٦ مسجداً للمسلمين ليس غير ! .

وفي آذار (مارس) ١٨٣٨ م أصدر الفرنسيون قانوناً جعلوا به اللغة العربية لغة أجنبية .

أمّا سياسة « الأرض المحروقة » التي اتبعتها بوجو عندما حشدت له حكومته الفرنسية ٢٠٠ ألف جندي ، وصفها أحد معاوني بوجو في مذكراته ، وهو (سنت أرنو) قائلاً : « لقد كانت حملتنا تدميراً منظماً أكثر منها عملاً عسكرياً ، ونحن اليوم في وسط جبال مليانة ، لا نطلق إلا قليلاً من الرصاص ، وإنما نقضي وقتنا في حرق جميع القرى والأكواخ .. » ، ويقول : إن بلاد (بن مناصر) بديعة جداً ، لقد أحرقناها كلها ، آه أيّتها الحرب ، كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلوج ، فماتوا هناك من الجوع والبرد ، وليس في جيشنا سوى خمسة من القتلى ، وأربعين جريحاً » .

وأثار بعض النواب في المجلس الفرنسي مسألة هذه الحرب الوحشية ، وذلك إثر حادثة (ولدرياح) الذي ذهب ضحيتها ألف جزائري كانوا قد التجؤوا إلى بعض الكهوف فراراً من جند الغزو ، فانتقض (لمسييه) عليهم وأوقد النار على

أفواه الكهوف ، فمات جميع من فيها اختناقاً ، وكان جواب رئيس الحكومة المارشال (سولت) على هذا النقد هو أن هذه الأعمال قد تكون وحشية لو أن الحرب كانت في أوربة ، أما في إفريقية فهذه هي الحرب بعينها .

هذا بعض ما فعله الاستعمار الفرنسي في أرض الجزائر ، ثم يأتينا المؤرخ الكبير بروكلمان ، ليصف مقاومة الجزائريين للاستعمار الصليبي الفرنسي بالتعصب الديني في الإسلام ، وبنيران العصبية الدينية بين القبائل ، فتابعت حرب العصابات ضد الفرنسيين .

أية وحشية ، وأية صليبية ، وأي تعصب هذا الذي أتبعه الفرنسيون في الجزائر ، ثم يوصف عبد القادر الجزائري لوقوفه - ومن معه - في وجه هذه الوحشية ، وهذه الصليبية ، وهذا التعصب ، بالتعصب الديني ؟!

هذا منطق بروكلمان العميق الشامل .. العصبية الدينية ، أو بعبارة أخرى « التعصب الديني » يمكنه أن يتعرف عليه في أوربة وتاريخها ، عندما عمتها موجة التعصب الحاد قبيل وأثناء وبعد الحروب الصليبية ، التعصب الديني هو الذي أعمى قادة وملوك أوربة ، فضلاً عن رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا أوربان الثاني ، فساقوا شعوبهم إلى القتل والنهب والاعتداء على أرض ليست لهم ، وعلى شعوب آمنة بينهم وبينها ألوف الأميال .

التعصب الديني هو الذي أخرج الأوربيين عن جوهر رسالة المسيح عليه السلام ، رسالة المحبة والسلام ، وجعلهم وحوشاً ضارية ، يفاخرون بأنهم يخوضون في بحار من دماء البشر ، لا يفرقون بين طفل وامرأة وشيخ .. كل ذلك باسم المسيح والمسيحية ، فهي « حرب مقدسة » ليس فيها تعصب ديني ، ولا نيران العصبية الدينية !!!

إن الذي كان يجري في الجزائر ، وفي بيت الأمير عبد القادر الجزائري ، إنما

هو تدارس أعمال الاستعمار الفرنسي وتعصُّبه الديني ، وصليبيته الحاقدة ، وكيف يمكن للمجاهدين لا المتعصِّبين ، الرَّد عليها ، والوقوف في وجهها ، ويا سبحان الله ، كيف يقلب « الموضوعي » بروكلمان الحقائق ، وكيف يقلب التعصب الحقائق ، وكيف يعمي الأبصار فضلاً عن البصائر .

ويا ضياع وقت من بحث في التاريخ الإسلامي ، ولم يستند أو يتكئ على بروكلمان في مصنَّافته .



وفي ص ٧١١ يقول بروكلمان : « لم تعد أقدار مصر ، بعد احتلالها من قبل البريطانيين سنة ١٨٨٢ م ، مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصَّة بسائر الدُّول الإسلاميَّة » ، « وليس يحق لنا ، دون شك ، أن نعدَّ من باب الرِّياء السِّياسي تلك التوكيدات الَّتِي أكثر السَّاسة البريطانيُّون من ترديدها ، والَّتِي تنصُّ على أنَّهم لا يهدفون إلى المحافظة على مصالح الإمبراطوريَّة في تلك البلاد فحسب ، بل إلى رفع مستوى المصريين من الوجهتين الماديَّة والفكريَّة أيضاً » .

وفي ص ٧٤٠ : « وليس من شك في أن زعامة مصر في الحقول الثَّقافيَّة ، وفي الدَّوائر الإسلاميَّة - تلك الزَّعامة المعترف بها منذ عهد طويل - خليقة بأن تنمو تبعاً لتعاظم سلطانها السِّياسي لتحقيق ، آخر الأمر ، أيضاً هدفاً ما فتئت ترنو إليه من زمن بعيد ، أعني التَّحرُّر من وصاية أوربة العقليَّة » .

العقليَّة الاستعماريَّة الصَّليبيَّة لابدَّ أن تكشف عن نفسها في كتابات المؤرخين الأوربيين ، يضاف إلى هذه العقليَّة تعصُّب الغرب عامَّة ضدَّ الشَّرق ، وبصورة أخصَّ التعصُّب الأوربي المسيحي ضدَّ الإسلام والمسلمين .

لم تعد أقدار مصر بعد الاحتلال البريطاني مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصَّة بسائر الدُّول الإسلاميَّة ، لأنَّ المعتمد البريطاني اللُّورد « كرومر » مبشِّر حاقد ،

قدم كتاباً من تأليفه حمل العنوان التالي : « مصر الحديثة » ، شطّأ به القلم إلى الكلام عن الإسلام والمسلمين ، فوصفهم ووصف دينهم كما شاء ، وشاء هواه ، بما يخجل منه وجه الحقيقة ، وتحمرُّ له وجنة الصدق ، ثمَّ حكم بأنَّ المانع الأعظم من ترقِّي المسلمين هو دينهم ، « ولا أدري ما الباعث له على ذلك سوى التَّعصُّب السَّذيم ، والانتقام والتَّشفي من المسلمين ، وإغاضتهم بتحقيق دينهم ، ولا أراه كتب ما كتب معتقداً بصحَّة ما كان يُمليه عليه تعصُّبه الوخيم ، ولا يقصد بذلك سوى التَّبكيت وإهانة الإسلام وأهله ، لأنَّ سموم الحقد والعداوة كانت جارية على أسلأت قلمه الَّذي خطَّ به ذلك الكتاب ، فشَوَّه بذلك وجه الحقيقة وسوَّد جبين الإنصاف ، ولو كان يروم بما كتب النصيحة والموعظة لاستعمل غير ذلك الأسلوب الَّذي أودعه (مصر الحديثة) ، وجرى في التَّحرير مجرى آخر يظهر الحقيقة في ثوب مقبول لدى مَنْ طالع كتابه ، ولكنه أبقى .. حتَّى ترك نفوس المسلمين في جميع الأقطار ساخطة عليه وعلى كتابه ، بل إنَّ جميع العقلاء من المسيحيين هم ساخطون أيضاً على ما كتبه اللُّورد من الطَّعن بالإسلام والمسلمين ، لأنَّه خلاف الحقِّ ، بل ليس فيه حَبَّة من الحقيقة »^(١) .

قال السيد الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطي في مقالاته التي نشرها في (المؤيِّد) ما نصُّه : « لم ينشر اللُّورد كرومر كتابه ليؤثِّر به على نفوس المصريين ، أو ليقنعهم بصحَّة ما يقول عنهم أو ليجعلهم يعتقدون في دينهم ما يعتقدوه هو ، فالرجل أذكي من أن يتطلَّع إلى مثل هذه النُّتيجة ، وإنَّما أراد به أن يشوِّه سمعة المصريين في العالم الغربي انتقاماً منهم لبغضهم إياه ، واتِّحادهم على معاكسة أغراضه ، وإفساد سياسته ، وتشفياً من دينهم دين الإسلام الَّذي يعتقد أنَّه العروة الوثقى الَّتِي أَلَفَتْ بين المصريين ، وجمعت كلمتهم على مقاومة كلِّ مشروع

(١) الإسلام روح المدنية ، أو الدين الإسلامي واللورد كرومر ، تأليف : مصطفى الغلاييني ، طبع سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م ، ص ١٠

إنكليزي يمسُ بجامعتهم الدينيّة ، والرّجل عظيم في قومه ، موثوق بينهم بصدقه ، وصحة إرادته ، فلا غرابة أنّه يبلغ بنشر كتابه هذا أمنيّة من تشويه سمعتنا في ذلك العالم ، وتصويرنا بالصورة الّتي أرادها وقدّرها «^(١) .

حتّى صحيفة « العدل » الإنكليزيّة الّتي تصدر عن لندن قالت في مقال عنوانه : « كرومر ومصر » بعد أن ذكرت ثناءً من مدح الكتاب ورضي عنه ما نصّه : « والّذي نفهمه من كلّ هذا الإطراء من هذه المصادر أنّه كتاب لا يضارعه كتاب آخر في المطاعن والأكاذيب الّتي يؤلّف منها أقوالاً مختلفة »^(٢) .

فاللورد كرومر ، الحاقد ، الكاذب ، الطاعن .. هو الّذي أراد إبعاد مصر عن سائر الدّول الإسلاميّة^(٣) ، وليس هذا مطلباً من مطالب الشّعب العربي في مصر ، وخاب كرومر ، وخاب بروكلمان في رأيه أيضاً ، فأرض الكنانة جزء لا يتجزأ - مهما تألّبت الظروف - من أمتنا العربيّة ، وشعبها شعب مسلم أصيل ربطته الأقدار بسائر الدّول الإسلاميّة .

(١ و ٢) المرجع السابق ، ص ١١

(٣) نظم الشيخ الغلاييني قصيدة عنوانها : « الإسلام وكرومر » جعلها في مقدّمة كتابه « الإسلام روح المدنيّة » ، منها :

| | |
|---|--------------------------------|
| وهل أنت مولي النّصف من جاء يطلب | كرومر هل يجدي العتاب المهذب |
| ولا مرشد يهتديك إلاّ التّعصب | عدوت على الإسلام في الحكم ظالم |
| على الصخر قال الصّخر : « يا لورد » تكذب | كتبت عن الإسلام مالموقعصّة |
| وأشياء أملاها الهوى المتشعب | فزور وبتان وإفسك مضلل |
| ينوء بها الطسود الأشم فيشعب | كذبت على الدّين الحنيفي كذبة |
| بعقل فقامت السيوم تهذي وتصعب | فهل بك مس من جنون وخفّة |
| لترشد قوماً عن هدام تنكبوا.. | وهل جئت مصرأ داعياً لديانة |
| فعدت وعادوا مثلما عاد أشعب | فخضت كن خاضوا من الفحش أبحراً |
| عذرنا ولكن للسياسة تنسب | فلو كنت قسيساً يصارح جهرة |
| كذلك (يعلو الحق) والحق أغلب | بدا الحق فارتاع الضلال وحزبة |

يريد بروكلمان أن يقنعنا ، بأن أقوال الساسة الاستعماريين البريطانيين حول هدف بريطانية في احتلالها لمصر ، هو تحسين أوضاعها المادّية والفكرية ، أيصل به الحقد والدجل والافتراء إلى هذه الدرجة ؟! ويصل به الاستهزاء بعقول الناس إلى هذا الحد ؟!.

بريطانية استهدفت في غزوها مصر رفع مكانتها وتحسين أحوال شعبها المادّية والمعنوية ، أمّا أبطال المقاومة في مصر ، ورجال حركتها الوطنية ، أمثال : أحمد عرابي ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، ومصطفى كامل .. فإنهم كانوا يريدون لمصر الدمار والفقر والتخلف المادّي والفكري عندما قاوموا الاستعمار البريطاني ، هل يمكن لعادل في الدنيا أن يصدق ذلك ، ويقبل هذا المنطق ؟!.

ونسأل بروكلمان سؤالاً واحداً لتفنيد رأيه ، وإثبات افتراءه وتجاهله عن الحقائق ، كيف تركت بريطانية الشعب المصري ؟ وهل ترضى لبلادك وشعبك حكماً كالحكم البريطاني لمصر ؟ وهل ترضى لبلادك وشعبك حاكماً مثل كرومر ؟.



وفي ص ٧١٨ يقول « العلامة الموضوعي » بروكلمان : « وكان لحادثة غير ذات أهمية في حدّ ذاتها أن تكشف للشعب كافة ، لأوّل مرّة ، عن مركزه الحقيقي ، ذلك المركز الذي لا يليق به ، ففي ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٠٦ م ، كان بعض الضباط البريطانيين يصطادون الحمام في قرية دنشواي في الدلتا ، فأصابوا امرأة مصرية ، فلم يكن من الفلاحين ، الذين أهاجمهم الحادث هياجاً كبيراً ، إلا أن هجموا عليهم بالهراوي والتّبايت ، فقتلوا واحداً منهم فيما هو يلوذ بأذيال الفرار ، وأمر كرومر بإنزال أشد العقاب بأولئك الفلاحين ، فشنق أربعة منهم على رؤوس الأشهاد في ٢٨ حزيران (يونيو) ، وجلّد سبعة عشر بالسّياط ،

ثمَّ حَمَلُوا إِلَى السَّجْنِ ، والواقع أَنَّ هذا القصص الوحشي أثار عاصفة من الاستياء لا في مصر وحدها ، بل في أوربة وفي البرلمان البريطاني أيضاً .. » .
إن من يقرأ أحداث « دِنْشَوَاي » كما كانت ، وكما وقعت ، يبكي الموضوعية والمنهج العلمي عند بروكلمان .

كُتِبَ صغير مزوّد بالصور الحقيقية للحادثة^(١) ، عنوانه : « صحيفة من تاريخ إنجلترا في مصر » ، طبع في القاهرة في أوّل أيار (مايو) سنة ١٩١٥ م^(٢) ، جاء في مقدّمته : « يتحتّم على المرء الذي يريد أن يتصدّى لتسطير ما أتاه ويأتيه الإنكليز من الجرائم العديدة ، والحمازي والنصب والتزييف في وادي النيل ، أن يفرد لذلك الفصول الضافية ، والمجلّدات الضخمة ، وأن يعزّز أقواله بالحج والبراهين الدامغة التي تفقأ أعين الخونة والدُخلاء والمأجورين ، الذين تتخذهم إنجلترا عادة لترويج بضاعتها ، وتبرير أعمالها وفضائلها » ، وبدء من الصفحة الرابعة بدأ الكتيّب بسرد تفاصيل حادثة دِنْشَوَاي ، ومما جاء فيه :

الضُّباط والعساكر الإنجليزيّة ذهبوا لصيد الحمام في قرية دنشواي بمديرية المنوفيّة ، فحدّثهم شيخ من الفلاحين تقدّم إلى المترجم الذي يرافق الإنجليز وحدّثه عاقبة الدُثمن من القرية قائلاً له : إنّ الأهالي في غاية الكدر والتّهيج من تردّد هذه العساكر عليهم وقتل طيورهم ، كما فعلوا مثل ذلك في العام الماضي ، فلم يعبؤوا بهذه النصيحة ، وبدؤوا في إطلاق بنادقهم بسرعة وكثرة في وسط القرية ، فأصاب رصاصة منهم امرأة فلاحه ، وسببت أخرى حريقاً في إحدى المزارع ، فلم يكد الأهالي ينظرون إلى تلك النتيجة الحزنة ، حتّى تراكضوا من جميع الجوانب ، وفي الحال ابتدأت المشاحنة بين الطّرفين ، ولعدم فهم الواحد الآخر

(١) نشرنا بعضها في « أطلس التاريخ العربي » .

(٢) المؤلّف : د . منصور مصطفى رفعت .

جيداً ، انتهت تلك المعركة بجرح ثلاثة من العساكر الإنجليز ، ومثلهم من أهالي القرية ، وكان من ضمن الجرحى الإنجليز ، ضابط يدعى الكابتن « بول » ، انسحب من وسط المعركة خوفاً على حياته ، وأخذ يعدو مسرعاً في الشمس المحرقة ، فكانت العاقبة أن سقط ميتاً من ضربة الشمس ، فسارع العساكر الإنجليز إلى الأهالي الأبرياء ، فأوسعوهم ضرباً ولكماً ، ثم ختموا ذلك الفصل الحزن بأن حطّموا رأس أحد الفلاحين الأبرياء ، وقتلوه شرقتة .

هذه هي الحقيقة بتمامها ، تشرح بأجلى بيان ، فن الذي حرّك مسألة دنشواي ؟ ومن هو المعتدي الأثيم ، الذي يستحق صارم التأديب والعقاب ؟ .

لقد رُمي الشعب الآمن قاطبة بالتوحش ، والتعصّب ، وأن إنزال الصّواعق على دنشواي ، فأرسلت المشائق إليها قبل انعقاد المحكمة بأسبوع ، وتشكّلت « المحكمة المخصوصة » ، وقُدّم طبيب إنجليزي شهادته بعد تشريح جثة الكابتن « بول » ، قائلاً : ثبت لدي بالدليل القاطع بأن موته قد نشأ من تأثير حرارة الشمس المحرقة ، وأن ما به من آثار الجروح الطفيفة التي أصابته عقب المشاجرة ، لا يمكن أن تكون سبب وفاته .

ومع ذلك أصدرت « المحكمة المخصوصة » في الخامس والعشرين من شهر حزيران (يونيو) أحكامها التالية :

- ١ - أربعة من المتهمين تنفّذ بهم عقوبة الإعدام في الحال^(١) .
- ٢ - اثنان آخران حكما بالأشغال الشاقة المؤبّدة^(٢) .
- ٣ - متّهم آخر بالأشغال الشاقة لخمس عشرة عاماً^(٣) ، وستّة آخرون بنفس

(١) وهم : حسن علي محفوظ ، ويوسف حسن سليم ، وعيسى سالم ، ومحمود درويش زهران .

(٢) محمد عبد النبي (مؤذن القرية) ، وأحمد عبد العال .

(٣) أحمد محمد السبيسي .

العقوبة لمدة سبع سنين ، وثلاثة آخرون بسنة حبس ، وعلاوة على ذلك فقد أضافوا جلد كل منهم علناً خمسين جلدة .

ونفذت الأحكام بقسوة ووحشية : « كانت أجسام المجلودين تتمزق وينبجس الدّم منها ، وينقطع المجلود عن الكلام بعد الضربات الأولى من شدة الألم » .

ونعود بعد هذا إلى بروكلمان لنراه أخطأ في الفقرة التي أوردناها من وجوه أربع :

١ - « وكان لحادثة غير ذات أهمية في حدّ ذاتها ، أن تكشف للشّعب كافة ، لأول مرة ، عن مركزه الحقيقي ، ذلك المركز الذي لا يليق به » .

الحادثة غير ذات أهمية لأنها في بلد عربي ، وضد شعب عربي مسلم ، أما لو كانت في ألمانية بلد بروكلمان ، أو في إنجلترا بلد كرومر لكان لحقوق الإنسان شأن آخر ، ولأصبحت ذات أهمية كبرى ، أما الكشف « لأول مرة » عن مركز الشّعب الحقيقي ، فلا لهذه العبارة أيضاً ، لقد عرف مركزه ، وما زال يذكره ، منذ أن قصف الأسطول الإنجليزي الإسكندرية ودمرها ، ومنذ مذابح التّل الكبير ، ورمي أطفال المصريين برصاص عساكر الإنجليز ، ومنذ أن أغلق كرومر المدارس ، وأهل الصّحة عمداً .

٢ - « كان بعض الضباط البريطانيين يصطادون الحمام في قرية دنشواي » ، وصوابه : كان بعض الضباط البريطانيين يصطادون « حمام الأهالي » في قرية دنشواي ، وحذّروا من عواقب فعلتهم ، ولم يعبؤوا بأمالك المواطنين ، فأصابوا بطلقات بنادقهم امرأة ، وأحرقوا بيادر في القرية .

٣ - « هجموا عليهم بالهراوي والنبايت فقتلوا واحداً منهم فيما هو يلود بأذيال الفرار » ، وصوابه : لم يقتلوا واحداً ، فالكابتن بُول مات حسب تقرير الطبيب الشرعي الإنجليزي ، نتيجة ضربة شمس .

٤ - « والواقع أن هذا القصص الوحشي أشار عاصفة من الاستياء ، لا في مصر وحدها ، بل في أوربة ، وفي البرلمان البريطاني أيضاً » . وصوابه : إن الذي حرّك الضمير الإنساني قبالة جرائم بريطانية ورجلها الحاقد كرومر ، إنما هو قلم مصطفى كامل ، وأمثاله من أصحاب الضمائر الحيّة ، التي حركت المشاعر الإنسانية لدى كل إنسان ، فأحسّت الدنيا بعمق وحشية جريمة كرومر في مصر .



وفي ص ٧١٩ : « حمل ألدون جورست - الذي حلّ محلّ اللورد كرومر - الحديوي على إسناد هذا المنصب إلى رجل قبضي هو بطرس غالي باشا ، ناظر المالية السابق ، فما كان من الوطنيين إلّا أن شنّوا عليه حملة شعواء ، أدّت إلى مصرعه في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٩١٠ م .. » .

شنّ الوطنيون حملة شعواء أدّت إلى مصرعه ، لا لأنّه بطرس غالي باشا ، بل لأنّه صنّعة بريطانية في مصر ، لقد تقم عليه الوطنيون المصريون إمضاء اتفاقية السودان ، وترؤسه محكمة دنشواي - وهذه وحدها تكفيه ليلقى مصرعه - وإعادته قانون المطبوعات ، ومقاومة الجمعية العمومية ، فانبرى له إبراهيم الورداني (شاب من أقباط مصر) فقتله ، فقتل به .



ويقول بروكلمان في ص ٧٢٣ : « والواقع أن سعداً هو صاحب الفضل الرئيسي في إيقاظ المصريين ، بعد عبودية تطاولت ألف سنة ، في ظلّ الحكام الوطنيين والأجانب ، وتنبيههم إلى حقّهم في تقرير مصير أمّتهم وبلادهم » .

العبوديّة التي يتحدّث عنها بروكلمان ، أراد بها أن يغطّي استعباد أوربة لشعوب الشرق عامّة ، وبلاد المسلمين خاصّة ، مصر لم تعرف عبودة في ظلّ

الإسلام ، عرفتھا قبله ، في ظلّ حكومة الرُّوم . قال توماس أرنولد ، في كتابه « الدَّعوة إلى الإسلام » ، ص ١٢٣ : « كان القبط في مصر ، يُعَذَّبُ أحدهم ، ثمَّ يلقي به إلى اليمِّ » ، ويقول في الصفحة ذاتها : « ويرجع النجاح السَّريع الَّذي أحرزه عزاة العرب ، قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين ، الَّذين كرهوا الحكم البيزنطي ، لما عُرِف به من الإدارة الظالمة ، ولما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت » .

الفتح العربي الإسلامي ضمن حياة تقوم على الحرّية الدّينيّة الّتي لم ينعموا بها من قبل ، وبذلك خلَّصهم من التَّدخل المستمر الَّذي أنوا من عبئه الثَّقيل في ظل الحكم الرُّوماني . أمّا النّاحية الماليّة ، فباعتراف عدد كبير من مؤرّخي الغرب ، أن الشُّعوب الّتي فتحت بلادها لم ترهق بالضرائب :

« إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهورهم إلاّ شيئاً ضئيلاً من المال ، لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنيّة »^(١) .
« ادفعوا جزية يسيرة ، تُسبِّغْ عليكم حماية كاملة »^(٢) .

« جزية زهيدة تقلّ عما كانت تدفعه إلى سادتها السّابقين من ضرائب »^(٣)

بروكلمان مؤرّخ « موضوعي شامل عميق » ، فن العار أن يتجاهل الحقيقة ، ويعمي بصيرته عنها ، عندما حرّرت مصر من عبوديّة الرُّوم ، أصبح ابن مصر - مسلماً أو ذميّاً - كابن الجزيرة العربيّة سواء بسواء ، وإنّ أجمل عبارة قيلت في حقوق الإنسان ، ونُقِّد مضمونها نصّاً وروحاً ، قالها الفاروق عمر رضي الله عنه ، لعمر بن العاص واليه على مصر ، عندما ضرب ابنه ابن قبطي تجاوزه

(١) القول لدريبر ، روح الدين الإسلامي ، ص : ٣٩٢

(٢) لورا فيشيفا غليري في كتابها « دفاع عن الإسلام » ، ص ٣٢

(٣) غوستاف لويون « حضارة العرب » ، ص ١٢٤

في سباق جرى : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

العبودية عرفتھا مصر ، وذاقت كثير من شعوب الأرض ويلاتھا وجرائھا ، تلك العبودية التي تمثلت في استعمار الدول الأوربية للشعوب الضعيفة في العالم ، فنهبّت خيراتها ، وقُتِل مناضلوها ، طالبو الحرية من أبنائها .

أنسي بروكلمان ، أم تناسى العبودية التي مارستها دول أوربة ، وفي مقدمتها إنجلترا ، حين أخذت تحمل الآلاف من بنات وشباب إفريقية ، مكبلين بسلاسل الحديد ، لبيعهم ، أو لدفعهم إلى العمل تحت جلد الشيطان في أمريكا . وعرفت مصر العبودية عند حفر قناة السويس ، حيث سخر الفرنسيون عشرات الألوف من فلاحى مصر ، بظروف معاشية وجوية ونفسية أسوأ من سيئة ، اضطرت مصر خلالها أن تطلب إيقاف العمل ، لرفع الشيطان عن ظهور الفلاحين العراة ، ولتحسين أوضاعهم المعاشية .

وإن سعد زغلول نبّه شعبه حقاً ، ونشر بين صفوفه الوعي الوطني ، ولكن فات بروكلمان أن يذكر أن هذه التوعية ، وذلك التنبيه ، إنما كان ضد عبودية المستعمر البريطاني الدّخيل ، المستعبد لشعب مصر ، وسارق خيراتها .

ويظهر أن الاستعمار الأوربي في قاموس بروكلمان وأمثاله من المستشرقين « الموضوعيين » هو النهضة والرّقي ، ومحاولة رفع الشعب إلى مصاف الدول الرّاقية ، وأن الحرية والنّهضة والرّقي حين تأتي على أيدي المسلمين ، فهي في قاموس هذا الصّنف من المستشرقين المبشرين « الموضوعيين » عبودية وتخلّف ، والله في خلقه شؤون .



وفي ص ٧٦٧ : « وتعهّدت فرنسا بأن تساعد الدولتين السوريّة واللبنانيّة على الانضمام إلى عصبة الأمم ، وقد كان هذا خليقاً بأن يحقّق للوطنيين السوريين

مطالبهم الأكثر إلحاحاً ، وأن يمهد السبيل لتطوُّر الدُولتين تطوُّراً حرّاً ، من غير أن يكلف فرنسا الانقطاع عن أداء رسالتها الثقافيّة في الشّرق .

نعود إلى قاموس بروكلمان العجيب ، والذي نجد فيه أنّ استعمار فرنسا لسوريّة وتجزئتها بعد الحرب العالميّة الأولى ، إنّها هو تأدية لرسالة ثقافيّة في الشّرق ، وهل استؤذنت سورية ووافقت على تأدية فرنسا لرسالتها الثقافيّة في الشّرق ، من تبشير ، وقرنّسة ، وطمس لتاريخها العربي ، ومحاربة اللّغة العربيّة ؟

وهل يقبل بروكلمان من دولة أجنبية مها زاد رقيّها عن دولته ، أن تدخل إلى بلاده بالنّار والحديد ، وأن تهدم المدن ، وتحرق الأحياء السّكنيّة ، وتقتل الآمنين بالعشرات والمئات ، هل يقبل بذلك ، ويطلق عليه اسم تأدية رسالة ثقافيّة ؟

متى كانت الرّسالة الثقافيّة تقوم على كم الأفواه ، وملء السّجون ، وسحق الإنسان ؟

وإذا أراد بروكلمان أن يعرف - وما أظنه لا يعرف - الرّسالة الثقافيّة ، فليقرأ بموضوعيّة ، وبمنهج علمي ، وبتجرّد مفتشاً عن الحقيقة ، تاريخ الفتوحات الإسلاميّة ، ليطلّع على الرّسالة الحقيقيّة للحرية والثقافة ، وليرى كيف كانت تنقلب تلك الشّعوب من الجهل إلى العلم ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العبوديّة إلى الحرّية ، وما وصل العرب المسلمون الفاتحون إلى أرض إلا فتحت المدارس ، وقامت بها نهضة علميّة شعبيّة ، وما وصلت فرنسا وبريطانيّة .. والاستعمار الأوربي إلى أرض إلا أغلق مدارسها ، ونشر الأميّة والجهل والمرض ، فأى رسالة ثقافيّة لفرنسا في الشّرق ؟!

ومن الأمور البدهية - التاريخية والجغرافية - التي أخطأ بها بروكلمان ،
نورد :

« الرصافة على الفرات » ، ص ١٥٦ ، وهذا خطأ ، رصافة بادية الشام ،
ليس عندها نهر ، ولا عين جارية ، إنما شربهم من صهاريج عندهم داخل السور ،
(معجم البلدان ٤٧/٣) .

« جُنْدِيسَابور » ، ص ٢١٨ ، وصوابه : جُنْدِيسَابور .

وفي معرض حديثه عن المرابطين ، قال ص ٣١٨ : « واعتزل بهم في جزيرة
السَّنغال حيث ابتنى لهم رباطاً » ، وصوابه : واعتزل بهم في جزيرة في نهر السَّنغال
حيث ابتنى لهم رباطاً .

« حصن العقاب » ، ص ٣٣٠ ، وصوابه : « حصن العقاب » ، من العقبة .

« عين جالوت قرب الناصرة » ، ص ٣٩٠ ، وفي حاشية الصفحة ذاتها « في
الأصل - عين جالوت - قرب نابلس » ، وعين جالوت لا هنا ولا هنا ، هي قرب
بيسان على أطراف الغور الشمالي .

وفي ص ٥٤٧ أورد مدينة أضنة على الشكل التالي : أطنة .

وفي ص ٥٦٥ : « في مؤتمر لندن تقرّر انتقال الحكم انتقالاً وراثياً إلى أكبر
أبناء محمد علي سناً » وهذا خطأ فعاد بروكلمان في ص ٥٧٧ ليصوّب : « ينتقل
الحكم انتقالاً وراثياً ، حسب اتفاقية لندن الثانية ١٨٤١ م ، إلى أكبر أفراد أسرة
محمد علي سناً » .

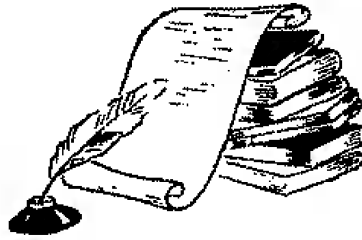
وفي ص ٥٦٦ : « ومات محمد علي سنة ١٨٤٩ م ، وإذا كان إبراهيم قد توفّي
قبله بثمانية أشهر ، فقد خلفه ابنه عباس باشا » ، وهذا خطأ أيضاً ، صوابه :

عباس الأول الذي تسلّم حكم مصر بعد وفاة إبراهيم بن محمد علي ، هو عباس بن طوسون بن محمد علي ، وليس ابن إبراهيم ، واستلامه للحكم كان تنفيذاً لأحد بنود التسوية التي تقرّرت في مؤتمر لندن الثاني ، ونحن إذ نذكر ذلك إنّما ندلّل به على قلة الدقّة العلميّة ، فإن مدرّساً عادياً لمادة التاريخ ، لا يقدم على قول عباس بن طوسون إلّا بعد أن يكون قد تأكّد من ذلك ، ولو كلّف « الموضوعي » بروكلمان نفسه عناء الرجوع إلى أيّ مصدر لتاريخ محمد علي وأسرته لتوصّل إلى الحقيقة .

وفي ص ٥٧٨ أورد مَصَوِّع ، الميناء الشهير على شاطئ البحر الأحمر ، جنوبي أرتيرية ، خطأ على الشكل التالي : مَصَوِّع .

وفي ص ٦٣٩ أورد تُنْبِكْتُو « تُنْ بُكْت » المدينة المعروفة في السودان الغربي خطأ على الشكل التالي : تِمْبِكْتُو .

وفي ص ٨٠٤ قال معركة القادسية سنة ٦٣٥ م ، واليرموك بعدها ، وذلك سنة ٦٣٦ م ، وهذا قطعاً خطأ ، فاليرموك أولاً ، وذلك سنة ١٣ هـ بين خلافتي أبي بكر وعمر رضي الله عنه ، والقادسية أيام خلافة عمر سنة ١٤ هـ



خَاتِمَةٌ

« لَا يُؤْخَذُ الْعِلْمُ مِنْ أَرْبَعَةٍ ، وَيُؤْخَذُ مِنْ سِوَى ذَلِكَ ، لَا يُؤْخَذُ مِنْ سَفِيهِه ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ صَاحِبِ هَوًى يَدْعُو النَّاسَ إِلَى هَوَاهُ ، وَلَا مِنْ كَذَّابٍ يَكْذِبُ فِي إِحَادِيثِ النَّاسِ .. وَلَا مِنْ شَيْخٍ لَهُ فَضْلٌ وَصَلَاحٌ وَعِبَادَةٌ إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مَا يَحْدُثُ بِهِ » .

« الإمام مالك بن أنس »

هذه أهمُّ الملاحظات والرُّدود التي يمكن أن نوجِّهها إلى كتاب « الإمام » في التَّاريخ الإسلامي ، « الموضوعي » كارل بروكلمان ، ولا ندَّعي أنَّها كلُّ الملاحظات ، ولكن يمكننا القول إنَّها أهمُّ الملاحظات ، وهي كافية لتكوين فكرة كاملة عن النهج الذي كُتِبَ به « تاريخ الشعوب الإسلامية » .

وكنا قد أَلَحْنَا في مقدِّمة هذا الكتاب ، أن خطأ بروكلمان الكبير ، ابتعاده عن مصادرنا ، وطرحه جانباً الطُّبري ، وابن الأثير ، وابن سعد .. عندما وضع كتابه ، واعتماده كتب المستشرقين ، ولا عذر له بذلك مطلقاً ، لأنَّه يتقن العربيَّة قراءة وكتابة . ومن يتصفَّح حواشي « تاريخ الشعوب الإسلامية » يجد فيها اسم البلاذري ص ١٤٠ لحادثة ثانوية ، ويجد اسم البخاري ولكن لتعليقات المعرَّبين ، وكذلك اسم أبي داود ص ١٨ و ٢٠٣ ، والإمام أحمد ، وأبي يعلى والحاكم والسيوطي .. مرَّة أو مرَّتين من استخدام المعرَّبين ، والطُّبري ص ٣٥ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٢٧ ، ولكن من توظيف المعرَّبين والمُراجع ، وكذلك مالك بن أنس والموطَّأ .. أما بروكلمان ، فلم يعطِ مناهل تاريخنا المعتمدة قيمة تذكر .

أما كتب المستشرقين التي اعتمدها فكثيرة ، وهذا إحصاء بها حسب أحرف الهجاء :

آدمز ٦١٨ ، أبوت ١٨٥ ، أثناسيوس ١٣٥ ، أغنهارد ١٨٨ ، أوبرت ٣٧٧ ،
أوديسيوس ١٨٥ ، أوكلي ٣٢٨ ، ايشانوف ٢٨٢ ، إيرلند ٦٠٤ ، ٧٤٥ ، ٧٥٩ ، ٧٦٢ ،
٧٨٣ ، ٧٨٤ .

بابنجر ٤٥٠ ، بارتولد ١٦٧ ، ١٨٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٨ ، ٢٨٢ ، ٣٩٢ . بالاسيوس
أسين ٣٠٠ ، بتلر ٩٩ ، براس ٦٤٠ ، براون ٤١٩ ، ٦٧٧ ، ٦٨٢ ، بوفلا ١٨٦ ،
بولياك ٣٧٢ ، بيكر ١٠٣ ، ١٢٦ ، ٢٣٥ ، ٣٧١ ، برانكوفتش جورج ٤٣٦ ، برستر
٣٧٧ ، برشام فون ٢٨١ ، بيل ١٠٣ .

تنشر ٣٧٨ ، ٤١٣ ، توري ١٢٦ ، تيللو ٦٥٠ ، تويانز ١٤٣ .

دينز ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٩٩ ، ٢٢٥ ، ٢٩٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٤٠٥ ، ديسو ٢٠ ، دي-
غويه ٩٣ ، ٢٢١ ، دنبار ١٢٨ .

جب ١٣٦ ، ٣٣٩ ، ٦١٨ ، جبونز ٤٠١ ، جورخان ٣٧٧ ، جولدزبير ١٣٠ ،
١٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٤١ ، جويدي ١٧١ ، جلزر ٤٩١ .

روتشتاين ٢٠٠ ، روز ٥٠٣ .

زارنك ٣٧٧ .

سايكس مارك ١٩٩ ، ٦٨٣ ، ٧٤٦ ، ستروثمان ١٩٩ ، ٧٤٨ ، سكالي آشيل
٧٥٣ .

شاخت ١٠١ ، شاك الكونت فون ٣٠٠ ، ٣٤٣ ، شيث ١٨٩ ، ٣٣٨ .

غابرياني ١٩٦ ، غبريال ١٥٦ ، ١٥٩ .

فلهاوزن يوليوس ١٧ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٢ ، ١٥٢ ، فون
لكنهاين ٦٠٥ ، فان جالدر ١٣٢ ، فان فلوتن ١٣٢ ، ١٦٦ ، فسنك ٤٦ ، فون
وبر ١٩١ ، فوندرهايدن ٢٤٨ ، فيشر أويغن ١٥ ، ٥٩٨ ، فون أرندونك ٢٢٨ ،
فون كريمير ١٣٥ ، فون شاك ٣٠٠ ، ٢٤٣ ، فون أوبنهايم ٦٥٥ ، فون نيدرماير
٦٨٣ ، فون فسندونك ٦٩٨ .

كاستانييه ٦٠٦ ، كابغاير ٧٥٨ ، كريموفون ٢٣٥ ، كوديل ١٢٦ ، كيتاني
١٥٢ ، لوبريلي ٤٠٤ ، كريست ٦٠٦ .

لامانس ٢٠ ، ٣٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٥٢ ،
١٥٤ ، لاووست ٣٧٠ ، لوكهارت ٥٢٨ ، لويس برنارد ٢٣١ ، لويد اللورد ٧٢٢ .

المنتفك ٧٧٥ ، ميدنيكوف ٨٥ ، ميلييه ٣٢٣ ، مييرهوف ٢٠٢ ، ماير ٣٦٥ ،
٦٤٠ ، مولر ٣٩٤ ، مينورسكي ٤٣٨ .

نولدكه ٢٣ ، ٣٨ ، ١٧٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، نيكل لويس ٣١٢ ، نيكلسون
١٩٠ .

هارتمان ٧٠٥ ، هنز ٥٠٢ ، ٤٩٦ ، هورجرونيه سنوك ٧٥ ، هيوز ١٩٠ .

وبستر ٦٩٦ ، وسترمان ٦٤٠ ، وليدي ٢٠٣ ، ويتسك ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ،
٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، واختر ٤٨٧ ، ياشكه ٦٩٠ ، ٧٠٨ .

بالإضافة إلى جورج أنطونيسوس ، وفيليب حتي ، وقسطنطين زريق ..
فلماذا لم يرجع بروكلمان إلى الأصول ؟ مع أننا وإياه نعلم « إذا ضاعت الأصول
ضاع التاريخ ، هذه قاعدة لا موضع للجدال فيها ، وذلك أن التاريخ لا يقوم إلا
على الآثار التي خلفتها عقول السلف أو أيديهم » .

وأخيراً .. إنَّ معظم نتاج المستشرقين ، مظهر من مظاهر الغزو الفكري ،
الذي يستهدف الجذور لا القشور ، ويحاول القضاء على الجوهر لا العَرَض ، ويصر
على الأصول لا الفروع ، وتشويه تاريخنا العربي الإسلامي مظهر من مظاهر هذا
الغزو ، فالاستشراق له سببه الدِّيني ، ألا وهو إعداد المبشرين « فقبل الرِّمَاءُ تَمْلَأُ
الْكَنَائِنُ » ، ومن ثَمَّ إرسالهم إلى العالم الإسلامي .

الغزو الفكري ، معركة تمضي في صمت وهدوء ، مع أنَّه حرب ضروس ،
يُرِيدُ أَلَّا يَضَعَ أوزاره ، قبل أن يترك ضحاياه بين أسير أو قتيل ، أو جريح ، أو
كسيح ، سلاحه الفكرة ، والكلمة ، والرَّأي ، والنَّظريات ، وتحريف الكَلِم عن
مواضعه ، وغير ذلك مما يقوم مقام السِّيف قديماً ، والصَّاروخ حديثاً .

والاستشراق حركة علمية - في ظاهرها - لدراسة التُّراث الشَّرقي في معتقداته
وأدابه ، ولكنها تريد صرف أهله عنه ليولُّوا وجوههم شطر الغرب ، ويتعلَّقوا
بركاب مدنيَّته ، ومن هنا جاءت ضرورة رصد كلِّ ما يطرحه الغرب في ساحة
الإسلام من أفكار مضلَّلة ، وآراء منحرفة ، وكتابات مشوَّهة ، ونحن في هذه
السَّلسلة ، سلسلة « في الميزان » ، لانبثغي تجريح أحد ، ولا تحقير أحد ، وكل
ما نريده التنبيه إلى حملات التغريب ، والدُّس والتشويه ، كي لانصل إلى تحقيق
المقولة : « إن الرِّمِيَّة تحتفي بالرَّامي » .

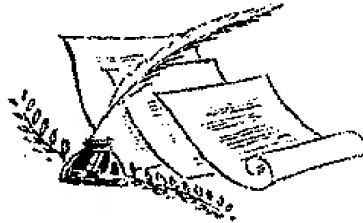
هذا جهد من جهودي في دفاعي عن تاريخنا المجيد ، وفي دفع الشُّبهات
والدُّسائس من حوله ، وهو جهد خالص لله ، يطيب لي ، فأسأله تعالى القبول .

والحمد لله رب العالمين

☆ ☆ ☆

المحتوى

| صفحة | |
|------|---|
| ٥ | المقدمة |
| ١٣ | كارل بروكلمان : حياته |
| ٢٠ | أهم مؤلفاته |
| ٢٥ | افتراءات بروكلمان على تاريخنا العربي الإسلامي |
| | حتى وفاة الرسول ﷺ |
| ٨٩ | افتراءات بروكلمان على عصر الخلفاء الراشدين |
| ١١٠ | افتراءات بروكلمان على العصر الأموي |
| ١١٧ | افتراءات بروكلمان على العصر العباسي |
| ١٤١ | افتراءات بروكلمان على تاريخنا الحديث |
| ١٦٩ | خاتمة |



كتب للمؤلف

- | | |
|----------------|---|
| الطبعة السادسة | ١ - الإسلام في قفص الاتهام |
| الطبعة الثانية | ٢ - مَنْ ضَيَّعَ القرآن ؟ |
| الطبعة الرابعة | ٣ - الإنسان بين العلم والدين |
| الطبعة الخامسة | ٤ - هارون الرشيد |
| الطبعة الخامسة | ٥ - غريزة ... أم تقدير إلهي ؟ |
| الطبعة الرابعة | ٦ - آراء يهدمها الإسلام |
| الطبعة الثالثة | ٧ - الإسلام وحركات التحرر العربية |
| الطبعة الثالثة | ٨ - عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي |
| الطبعة الثالثة | ٩ - الهجرة « حدث غير مجرى التاريخ » |
| الطبعة الثالثة | ١٠ - جرجي زيدان في الميزان |
| الطبعة الثالثة | ١١ - أطلس التاريخ العربي |
| الطبعة الأولى | ١٢ - موضوعية فيليب حتي |
| | ١٣ - حضارتنا العربية الإسلامية |

☆ ☆ ☆

سلسلة « غزوات الرسول الأعظم »

- ١ - بدر الكبرى « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » .
- ٢ - غزوة أحد « عاقبة المخالفة » .
- ٣ - غزوة الخندق « غزوة الأحزاب » .
- ٤ - صلح الحديبية « الفتح المبين » .
- ٥ - غزوة خيبر « الفتح القريب » .
- ٦ - غزوة مؤتة « فإنما هي إحدى الحُسَيْنَيْن » .
- ٧ - فتح مكة « الفتح الأعظم » .
- ٨ - حنين والطائف « لن نغلب اليوم عن قلة » .
- ٩ - غزوة تبوك « غزوة العسرة » .
- ١٠ - حروب الردة « من قيادة النبي ﷺ إلى إمرة أبي بكر » .

☆ ☆ ☆

سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام »

- ١ - القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص .
- ٢ - اليرموك بقيادة خالد بن الوليد .
- ٣ - نهاوند بقيادة النعمان بن مقرن المزني .
- ٤ - ذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
- ٥ - فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد .
- ٦ - بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي .
- ٧ - فتح صقلية بقيادة أسد بن الفرات .
- ٨ - الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين .
- ٩ - الأرك بقيادة المنصور يعقوب الموحدي .
- ١٠ - العقاب بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحدي .
- ١١ - مصرع غرناطة « أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر » .

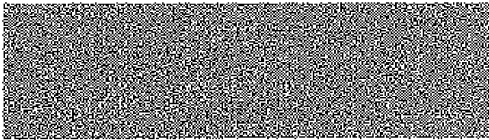
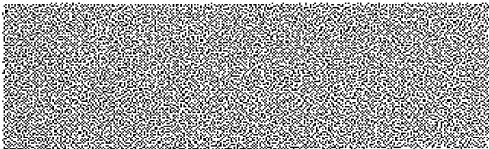
☆ ☆ ☆

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٠/١١/١٩٨٧م
عدد النسخ (١٠٠٠)

كتب بروكلمان تاريخنا منطلقاً من التشكيك ،
والرّفْض العشوائي ، معتمداً على الروايات الضّعيفة
الشاذّة ، والتي رفضها النّقاد الباحثون ، واستغريها العلماء
المطلّعون ، وبنى فكره ورأيه مسبقاً ، ثمّ جاء إلى وقائع
وأحداث تاريخنا العربي الإسلامي يطوّعها لما يؤيّد
فكرته وخطّته الرسومية ، يطمس ، ويضعّف ،
ويعرّض .. فقدم تاريخنا موسّعاً الجزئية ، متغاضياً عن
الكلّيّة ، مع تفسيرات عجيبّة ، ومواقف غريبة ، وأقوالٍ
ينبوعها الذّوق السّليم ، والفكر الموضوعي .

« كارل بروكلمان في الميزان » ، وأيّ ميزان هو ؟

إنه ميزان الحقائق التّاريخيّة ، ميزان يزن به كلّ
دارس مطّلع على تاريخنا الإسلامي ، ميزان يزن والأصابع
والأهواء بعيدة عن كفتيّته .



To: www.al-mostafa.com